جامعة طيبة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الدراسات الإسلامية

التعليم عن بعد

مقرر: مقارنة الثقافات (ISLM485)

الفصل الأول للعام الجامعي ١٤٣٩-١٤٤٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو ثقافة إسلامية أصيلة

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

الفصل الأول

مدخل إلى دراسة الثقافة الإسلامية

هذا الفصل يعد بمثابة المدخل إلى دراسة الثقافة، والمدخل في لغة العرب مكان الدخول، وهو للعلوم بمثابة الباب للدار، ولا يحسن بالعقلاء ولوج البيوت إلا عبر أبوابها ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[البقرة: ١٨٩].

وما لم يلم دارس العلم بمدخل العلم الذي يقصد إلى دراسته فإنه لا يسير فيه على نهج سواء.

المبحث الأول

أهداف الثقافة الإسلامية

يمكننا أن نحدد الأهداف المتوخاة من وراء دراسة الثقافة الإسلامية في الآتي :

١ - تعريف دارس الثقافة على مفهومها ومجالاتها وخصائصها ومصادرها وأصولها، بحيث يظهر له الفرق بين الثقافة وبين المصطلحات المقاربة لها، كما يظهر له الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات.

٢- بناء تصور شمولي للدين الإسلامي باعتباره موجها لثقافة الأمة الإسلامية ومؤسسا لحضارتها، وباعتباره دينا عالميا صالحا لتقويم الإنسان في كل زمان ومكان.

٣- تعرف دارسها على الدين الإسلامي تعريفا يدرك منه أنه الدين الكامل الذي لا يعروه نقص، والصالح لجمع البشرية على منهج سواء، والقادر على أن يصلح ظاهر الإنسان وباطنه، كما ينير قلبه وعقله.

٤- وقوف دارس هذا العلم على أثر الإسلام في حياته، وكيف يمدّه الإسلام بالنور والحياة، ويقوده إلى الهدى والصلاح، ويحيطه بسياج يحميه من الزلل، ويصونه من الانحراف، ويمده بالفضائل والقيم الراقية، ويعطيه الحلول لمواجهة مشكلات الحياة.

٥- تعريف المسلم على الغاية من وجوده ووجود عالم الإنس والجن، وهو تحقيق العبودية لله الواحد الأحد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

٦- التعرف على العقيدة الإسلامية الصحيحة السويّة، وتعميق الجانب الإيماني في النفوس تعميقاً قائما على الفقه المستنير والإقناع الواعي الراسخ بكل ما جاء به الإسلام، بعيدا عن الخرافات والأساطير والشوائب والدخن التي أصيب بها الفكر الإسلامي عبر القرون.

٧- تحقيق الولاء للإسلام، والانحياز لأمة الإسلام، والبعد عن موالاة أعداء الله وأعداء رسوله.

٨- التعرف على أهم التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية، وتسليح أبناء الإسلام بالعلم والمعرفة لمواجهة تلك التحديات، كي لا يأسر الأعداء فكره وقلبه، ولا يقع في شباك الخصوم.

٩- تبصير المسلم بأعداء الإسلام، وتعريفه بمخططاتهم ومؤامرتهم التي يكيدون بها الإسلام وأهله.

١٠ - تحقيق الرؤية الإسلامية السوية لأهم القضايا المثارة عالميا في الاعتقاد والاقتصاد والسياسة وغيرها.

١١ - التعرف على مدى اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء، وكيف ارتقى الإسلام بالعلم النافع في المجالات كلها.

١٢ - الإيقان بأن الحقائق العلمية التي توصل الإنسان إلى اكتشافها في هذا الكون لا يمكن أن تتناقض مع حقائق هذا الدين، ذلك أن خالق الأكوان هو منزل القرآن.

١٣ - التعرف إلى الشخصية الإسلامية السوية الفاعلة التي تتمثل الإسلام اعتقادا

وسلوكا وعملا، المتحلية بالأخلاق والقيم الإسلامية، المتطلعة إلى إقرار الحق، المقاومة للباطل، المبصرة للتغيرات الثقافية بشقيها الصالح والطالح، المدركة للتحديات التي تحاول اغتيال عقيدة الأمة وتفسد ثقافتها.

١٤- الوصول إلى قناعة بأن المسلم هو الأعز الأكرم في ميزان الله وحكمه، لأنه يمتلك الدين الأكمل والمنهج الأفضل، ويعرف الطريق الصحيح الموصل إلى خيري الدنيا والآخرة، حتى لا يهون المسلم في مجال الصراع، ولا يقف موقف المتسول على موائد الفكر الإنساني.

المبحث الثاني

تعريف الثقافة والمصطلحات ذات الصلة والفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها

اتسع استعمال لفظ «الثقافة» في مجال الحديث والتأليف والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، فيقال: فلان مثقف، وفلان غير مثقف، وفلان ثقافته واسعة، وفلان ثقافته ضحلة، ويقال: الثقافة الإسلامية خير الثقافات، والثقافة الغربية ثقافة جاهلية، فما المراد بالثقافة؟

سنحاول في هذا المبحث تعريف الثقافة بمعناها اللغوي، ومعناها الاصطلاحي، مفرقين في المعنى الاصطلاحي بين الثقافة عند إطلاقها وعند إضافتها.

وأعقبت الحديث على تعريف الثقافة بمطلب آخر بينت فيه الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات.

وعقدت في هذا المبحث مطلبا ثالثا للتفريق بين المعنى الاصطلاحي للثقافة، وبين المصطلحات ذات الصلة، وهي ثلاثة: العلم، والحضارة، والمدنية.

المطلب الأول

تعريف الثقافة في اللغة والاصطلاح

أولا: تعريف الثقافة في اللغة:

تدور استعمالات العرب لمادة «ثقف» في كلامها على الحِذْقِ في إدراك الأمور، وحسن الفهم، وجودة التقويم.

قال السمين الحلبي: «الثَّقْفُ: الحِذْقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنهُ: رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ، يقالُ: ثَقِفْتُه أَثْقَفُه ثَقْفاً، أي أدركتهُ إدراكاً بحذْق. وثَقِفْتُه، أي أدركتهُ ببصري بحذق، ثم تُجوِّز به، فيُستَعملُ في مجرَّدِ الإدراكِ، ومنهُ: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم﴾ [البقرة: ١٩١] وقولهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧].

وَثَقِفتُ الرمحَ: قوَّمتُه، فهو مُثقَّفٌ. والثِّقافُ ما يُثْقَفُ به. وفي حديثِ الغلام: «غلامٌ ثقِفٌ لَقِفٌ» أي فَطِنٌ. وامرأةٌ ثَقافٌ. وعن بنتِ عبد المطلب أُمِّ حكيمٍ: «إني حَصانٌ فما أُكلَّمُ وثَقافٌ فما أُعَلَّم» أي: حاذقةٌ[1].

ثانيا: تعريف الثقافة في الاصطلاح:

١-تعريف اللفظ المطلق للثقافة وصلته بالمعنى اللغوي:

هناك فرق بين تعريف الثقافة في الاصطلاح بين اللفظ المطلق: (ثقافة) واللفظ المركب (ثقافة الأمة).

فالثقافة إذا كانت لفظا مطلقا يراد بها الأخذ من كل علم بطرف، ولا يراد بها التعمق في دراسة علم من العلوم، ولذلك يقولون: تعلم شيئا عن كل شيء لتكون

(١) عمدة الحفاظ: ١/ ٣٢٢-٣٢٣ وراجع لسان العرب: ١/ ٣٦٤ ومحيط المحيط للبستاني: ١/ ١٩١. والفائق في غريب الحديث للزمخشري: ١/ ٤٧١ طبعة البابي الحلبي. مصر. الأولى. ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م.

مثقفا، وتعلم كل شيء عن شيء لتكون عالماً[1].

والصلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي بَيِّنٌ واضح، فالإنسان لا يكون مثقفا في جملة من العلوم ما لم يكن حاذقا في إدراكها، حسن الفهم لها، مجيدا لتقويم ما يطلع عليه منها.

العلم الذي وضعه المسلمون للأخذ من كل علم بطرف:

أدرك العلماء المسلمون أهمية وضع علم يعطي قارئه اطلاعا جيداً في العلوم المختلفة، والعلم الذي وضعوه لهذا الغرض هو علم الأدب.

وأطلق الأدب عند أهل اللسان العربي- كما يقول ابن خلدون- على الثمرة المرجوة من علم الأدب، «وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناهجهم»[2]. «ثم أرادوا به حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف»[3].

ولاحظ قوله: «الأخذ من كل علم بطرف» تجد أن «علم الأدب» قديما استعمل في مرحلة من المراحل بالمعنى الذي تراد به الثقافة حال إطلاقها[4].

وإذا أنت رجعت إلى كتاب من كتب الأدب كصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، وتصفحت الموضوعات التي تناولتها هذه الكتب فإنك تجدها تُطلِعُ

(١) نحو فلسفة عربية، للدكتور عبد الغني النوري وزميله: ص٥٤.
(٢) المقدمة: ص ١٠٦٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رصد الدكتور محمد سليمان الأشقر التطور الذي وقع على مصطلح الأدب عبر العصور، فكان على النحو التالي:
١ - الأدب بمعنى الخلق الكريم.
٢ - ثم استخدم بمعنى الثقافة والعلم في أول الإسلام.
٣ - ثم اقتصر في العصر الأموي على ما يلقيه المؤدبون من شعر ونثر وما يرتبط بهما من أخبار وأنساب.
٤ - شمل في العصر الأموي الثقافة العربية كلها حينا، بل شمل حينا آخر الثقافات الأجنبية والفنون والصناعات.
٥ - ثم عاد إلى الضيق فوقف عند حدود اللغة العربية. معجم علوم اللغة العربية: ص ٢٠.

قارئها على جملة جيدة في كل علم من العلوم التي لا بدَّ منها لمن نُعِدُّه - اليوم - مثقفاً.

وهذه الكتب وضعت في الأصل لتثقيف الذين يقومون على ديوان الإنشاء، وهو الجهاز الذي كان يخاطب الحاكم من خلاله الشعب والولاة وحكام الدول الأخرى، وما لم يكن موظفو هذا الديوان ملمين بالعلوم التي توسع آفاقهم، وتُقَوِّمُ ألسنتهم، وتزيد معارفهم، وتكشف لهم عن طبائع الذين يخاطبونهم، فإنهم لن يستطيعوا القيام بالمهمة المناطة بهم.

يقول القلقشندي في صبح الأعشى: «اعلم أن كاتب الإنشاء، وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم، والخوض في سائر الفنون، فليس احتياجه إلى ذلك على حدّ سواء»[1].

وهو هنا يقرر أمرين:

الأول: أن كاتب الإنشاء ينبغي أن يكون آخذاً من كل علم بطرف.

الثاني: أن حاجته إلى هذه العلوم متفاوتة، وأهم هذه العلوم لكاتب الإنشاء علم اللغة.

وقد أصبحت كتب الأدب - في تلك العصور - محل عناية الفئة المثقفة من أبناء المسلمين خاصة أولئك الذين يطمحون في الوصول إلى ديوان الإنشاء، ولا يستغني عنه طالب علم يبغي تهذيب نفسه وتقويمها، وتوسيع آفاق فكره.

تعريف الثقافة عند إضافتها للأمة :

وضّحتُ فيما سبق المراد بكلمة «ثقافة» عند إطلاقها، أما إذا أضيفت إلى الأمّة، فالمراد بها تراث تلك الأمّة الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به الأمّة، وهذا التراث الذي يشكل ثقافة الأمّة متداخل مترابط يشكل إطاراً ومحيطاً يحكم الأفراد والأسر والمجتمع في كل أمّة.

وثقافة الأمّة في جوانبها المختلفة تشكل أسلوبها في الحياة، فعقيدة الأمّة وتاريخها

(١) صبح الأعشى: ١/١٤٦، طبع وزارة الثقافة، القاهرة.

ونظرتها إلى الحياة، والأفكار والنظريات التي تدور في عقول أبنائها ومفكريها، وتدون في كتبها ودراساتها تشترك جميعاً في تحديد الأسلوب الذي يحكم حياة الأمّة، ويضبط مسارها ولذلك عرَّفَ بعض الباحثين الثقافة بقوله: «هي أسلوب الحياة السائد في مجتمع من المجتمعات»[1].

والأفراد في كل مجتمع من المجتمعات يتشربون - منذ أن تتفتح عيونهم على الحياة - ثقافة الأمّة التي يعيشون فيها، وتُأثّر هذه الثقافة في تكوينهم الفكري والعقائدي والخلقي، ويندمج الفرد بذلك في مجتمعه، وتتكون عاداته وتقاليده شيئاً فشيئاً، يقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2]، فالوليد خامة نظيفة طاهرة ليس فيها دنس الشرك والمعاصي، ولكن الوالدين يغرسان في ولدهما فكرهما وعقيدتهما وأسلوب حياتهما، وإذا خرج بعض الأفراد في مجتمع ما عن الطريقة التي ينهجها ذلك المجتمع فإنَّ أبناء جلدته لا ينظرون إلى هذا الخارج عن طريقتهم نظرة الرضا، ويعتبرونهم خارجين على تعاليم الآباء والأجداد، ومتمردين على قيم مجتمعهم وآدابه، وقد يعاقب المجتمعُ هؤلاء الخارجين عن نمط حياته بعقوبات رادعة.

واعتبر في هذا بحال الأنبياء مع أقوامهم، فقد اعتبروهم خارجين عن طريقهم وناصبوهم العداء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. وتهددوهم بالقتل على خلافهم لهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

واستمسك الضالون بتراث الآباء والأجداد ﴿بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) الموسوعة العربية الميسرة، للدكتور شفيق غربال ورفاقه ص٣٩، كتاب الثقافة والتربية في العصور القديمة للدكتور وهيب إبراهيم، طبع دار المعارف- مصر ١٩٦١. وهذا هو التعريف السديد للثقافة.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ٣٢١ ورقمه: ١٣٨٥- ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٧ ورقمه: ٢٦٥٨.

الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف ٢٢ - ٢٥].

إن هذا الذي وجدوا عليه آباءهم وصدَّهم عن اتباع الرسل هو تراث الآباء العقائدي والفكري والحضاري، ذلك التراث الذي تربوا عليه ونشؤوا عليه، وهو الذي نطلق عليه اليوم اسم الثقافة، فالأمم جميعاً ثقافتها تحيط بها، وتشكل حياتها، وتأسر الذين يعيشون في إطار مجتمعاتها.

المطلب الثاني

الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات

من العرض السابق يظهر لنا الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات، فالثقافة الإسلامية منضوية في حال استقامتها تحت تعاليم الإسلام، فالإسلام هو الذي يشكل قيم الأمة الإسلامية، ويصوغ عقولها وتصوراتها وعقيدتها، ويبني نفوس أفرادها، ويصلح قلوبهم، ويوجههم الوجهة الصالحة في الحياة، ويعرفهم بالخير والشر، والحق والباطل.

أما ثقافات الأمم فإن المحيط الثقافي الذي ينتج أسلوب كل أمة في حياتها خليط متنوع، وقد يكون متعارضا متضاربا متصارعا، تختلط فيه العقائد والنظريات والأديان والعادات والقيم، ومن هنا يوجد الخلل في ثقافات الأمم.

وأقرب مثال لهذا النوع من الثقافات الثقافة الغربية، فأسلوب حياتها مستمد من عاداتها وتقاليدها وتوجهات مفكريها، والنظريات التي صاغوها، أضف إلى هذا كله ما أخذوه من حضارة اليونان والرومان، وما ورثوه من الدين النصراني المحرف، وتاريخهم الذي تمثل الكنيسة فيه دورا بارزا، وثقافتهم على ذلك تعج بالتناقضات والتصدعات، ومن هنا لا يجوز أن يُدَّعى أن ثقافات الأمم متساوية، غير قابلة للنقد والتقويم.

وقد خلط الإعلان النهائي للمؤتمر الثاني العالمي للثقافة الذي نظمته اليونسكو عام ١٩٨٢ م في المكسيك حَقاً بباطل عندما قال: « إن لكل ثقافة قيمها، وإن تأكيد الذاتية الثقافية يسهم في تحرير الشعوب، ويزيد من ازدهار الجنس البشري، وإن جميع الثقافات

جزء لا يتجزأ من التراث المشترك للإنسانية، وإن كل الثقافات متساوية في إطار الكرامة، وإنه لا بدَّ من الاعتراف لكل شعب، ولكل مجتمع ثقافي بحقه في تأكيد ذاتيته الثقافية، وفي صونها، وفي كفالة الاحترام الواجب لها »[١].

والباطل الذي ورد في هذا الإعلان أن الثقافات متساوية، ووجوب الاعتراف لكل مجتمع ثقافي بحقه في تأكيد ذاتيته الثقافية..، وهذا القول قد يكون صواباً في ثقافات الأمم النابعة من عاداتها وتقاليدها..، فليس من حق أمّة أن تفرض على أمة أخرى ثقافتها، لأن ثقافات الأمم في هذه الحال متساوية، ولكن الحال يختلف إذا كانت ثقافة الأمّة نابعة من دين إلهي سماوي منزل من عند العليم الحكيم، فتكون التسوية بين هذه الثقافة الصالحة، والثقافات الجاهلية تسوية ظالمة ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم ٣٥-٣٦].

المطلب الثالث

المصطلحات ذات الصلة (العلم، الحضارة، المدنية)

أولاً: الفرق بين الثقافة والعلم:

« أصل العلم إدراك الشيء على حقيقته، وهو معرفة الشيء على ما هو عليه. »[٢]

«والعلم هو مجموعة الحقائق التي توصل إليها العقل الإنساني في مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن، والمحررة بالامتحانات المتكررة، فلا تختلف بتفاوت الأذواق، ولا تتغير بتغير المصالح»[٣].

وهذا النوع من العلم تراث إنساني عالمي، لا تختص به أمّة، ولا تحتكره قارة من قارات الأرض، فيكون غيرها عالة عليها فيه، إنه مشاع كالهواء الذي نتنفسه، والبحار التي تحيط باليابسة، وتمخر فيها ألوف السفن حاملة مئات الأعلام، ولا زالت الدول

(١) جريدة السياسة الكويتية بتاريخ ١٩٨٢/٩/٢٥.
(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ٣/ ١٣٤.
(٣) منهج الثقافة الإسلامية لمحب الدين الخطيب: ص ١٠.

تتبارى وتتنافس في تحصيل هذه العلوم، بل إن الدول الكبرى تبذل الأموال النفيسة لمن يعرفها الأسرار العلمية التي توصلت إليها الدول التي تخالفها في عقيدتها ومبدئها، ولكن رجال الإصلاح ورجال القيادة في تلك الدول نفسها يقضون الليالي الطوال باحثين عن الطريقة التي يحمون بها أبناء أمتهم من العقائد الدخيلة الوافدة.

وقد أقام الغرب الرأسمالي بناءه العلمي الشامخ على النتائج التي توصل إليها علماؤنا من قبل في مجال الطب والهندسة والحساب والجبر والفلك وغيرها من العلوم.

وإذا كان العلم تراثاً إنسانياً عالمياً، تتوقف نهضة أية أمة من الأمم على الأخذ به - فإن واجبنا أن نستفيد من علوم الشرق والغرب، والأوائل والأواخر، ونبني الصروح العلمية التي تجعلنا أمّة قويّة مرهوبة الجانب، وقد أمرنا القرآن ببناء القوة الحربية في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإعداد القوة اليوم المتمثل في الطائرة والدبابة والبارجة والغواصة والبندقية والمدفع والصاروخ والقنبلة الذريّة والهيدروجينية لا يتم إلاّ بإتقان علوم كثيرة.

هذا في العلم المادي، أما الثقافة، فالأمّة الإسلامية لها ثقافتها التي تشكل شخصية الفرد والأمّة، وتميزها عمن عداها، ومتى انسلخت الأمّة الإسلامية من ثقافتها التي تتمثل في قيمها وأخلاقها وتشريعها وآدابها فإن ذلك مؤذن بزوالها ودمارها، وبذلك ترتد إلى الجاهلية التي جاء الإسلام لينقذها منها.

وإذا عرفنا هذا علمنا ما نأخذ وما ندع من حضارة الغرب.

إفساد العلم:

بينت فيما سبق أن حقائق العلوم تراث إنساني، لا تختص به أمة من الأمم، ولكن يجب التنبه إلى أن الكاتبين في العلوم قد يصبغون هذه العلوم بفكرهم الضال، وفلسفاتهم المنحرفة، فالشيوعيون وظّفوا كثيرا من حقائق العلوم للتدليل على كفرهم وإلحادهم، والعلمانيون قطعوا الوشيجة بين العلم والدين، والحقيقة أن هذا الكون بما فيه من حقائق معبد لله الواحد الأحد تتجاوب جوانبه بالتسبيح لخالقه الواحد الأحد.

ثانيا: الفرق بين الثقافة والحضارة:

كلمة « الحضارة » ككلمة « الثقافة » يكثر استعمالها في مجال الحديث والتأليف والندوات والمؤتمرات، فيقولون: فلان متحضر، وفلان غير متحضر، والأمة الإسلامية أمة متحضرة، والقبائل المتوحشة غير متحضرة، وكما يوصف الأفراد والجماعات بالحضارة، توصف بها الأعمال، فالمعاملة المهذبة حضارة، والغلظة والجفاء ليست كذلك.

والعرب تريد بالحضارة والمدنية ما يقابل البداوة، والحاضرة تقابل البادية، وخلاصة ما في المعاجم اللغوية عن مادة حضارة تنتهي بنا إلى أن الحضارة هي حياة المدينة، والبداوة حياة البادية، والحضر سكان المدن، والبدو سكان الصحراء[1].

وقد قارن ابن خلدون بين البداوة والحضارة، وتوصل إلى أن الحضارة والمدنية هي المرحلة التي يرتقي إليها الإنسان في أحواله وعلومه وعوائده وصناعاته، هذه المرحلة هي التي ينتقل فيها الإنسان من البداوة إلى الحضارة، وفيها يتوسع في الرفاهية والغنى، ويركن إلى الدعة والسكون، ويستكثر من الأقوات والملابس، ويتوسع في البيوت واختطاط المدن والأمصار، ويتأنق في المطاعم والملابس، ويبلغ في إتقان الصنائع كل مبلغ، والحضارة عنده نهاية العمران[2].

وتطلق الحضارة والمدنية اليوم على الحصيلة الكلية التي تبلغها كل أمة في الرقي العلمي والفني، والأدبي والاجتماعي، وهذا لا يبعد كثيراً عما قرره ابن خلدون.

الحضارات الصالحة والحضارات الطالحة في الفقه القرآني:

تعد الثقافة قاعدة الحضارة وأصلها والمشكّلة لتوجهاتها، والحاكمة لغاياتها، فإذا كانت ثقافة الأمة ثقافة صالحة في معتقداتها وأخلاقها وتشريعاتها وقيمها وموازينها، كانت حضارتها حضارة سوية صالحة مستقيمة، فنجدها ترتقي بعلومها وعمرانها

---

(١) راجع: المصباح المنير: ص١٤٠. النهاية لابن الأثير: ١/ ٣٩٩. عمدة الحفاظ: ١/ ٤٩٠ المعجم الوسيط: ١/ ١٨١. ٢/ ٨٥٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص٢١٠-٢١٦.

واستخراج خيرات الأرض، وبناء القوة العسكرية لتحقيق الأهداف الخيرية النبيلة.

ومن الحضارات السويّة الصالحة حضارة ذي القرنين الذي حدثنا الله عنه في سورة الكهف، فقد أخبرنا أنه مكّن له في الأرض وآتاه من كل شيء سببا ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤] والتمكين يحتاج إلى المعرفة العلمية الواسعة التي تبنى بها القوى المادية، ويتعرف بها على التحرك في التجوال والأسفار، وبالعلم تخترق الصحارى، وتجتاز الجبال، وتركب البحار، وقد نجح ذو القرنين هو وجيشه في الوصول إلى أقصى الغرب وأقصى الشرق ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠].

وقد حدثنا القرآن كيف استعمل ذو القرنين ما آتاه الله من قوة في إقرار العدل، وعمارة الأرض، ورد الظلم ومحاربة الفساد ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً. قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

وقد استخدم ما آتاه الله من قوة في بناء السد الذي حجز يأجوج ومأجوج عن الإفساد في الأرض من غير أن يتقاضى مالا على عمله بعكس الغزاة المفسدين المخربين عبر التاريخ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ [الكهف: ٩٥].

وعندما أتم عمله الرائع، لم يفخر ولم يبطر، وإنما وقف أمامه متوجها إلى الله قائلا: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ [الكهف: ٩٨].

ومن الحضارات الخيرة، الحضارة التي بناها سليمان عليه السلام، فقد دعى الله أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] وأوتي سؤله، لقد سخر الله له الجن والإنس والطير، وعلم منطق الطير، وسخرت له الريح تحمله وجيشه رخاءً حيث أراد، فاستعمل ذلك كله في الدعوة إلى

الإسلام، وإقرار الحق، ومحاربة الباطل، وكان في ذلك كله خاضعا لله، مخبتاً له، شاكراً لأنعمه، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨-١٩].

وعندما جاءه الذي عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، قال متواضعا لعظمة ربه: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وعندما علم بكفر ملكة سبأ وقومها مع ما أنعم الله به عليهم من نعم قال لهم مخاطبا: ﴿أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]

وعندما جاؤوه بالمال ليكف عنهم، ويدعهم وما يعبدون، صاح فيهم قائلا: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] وتهددهم في حال إصرارهم على كفرهم بتوجيه ما أعطاه الله إياه من قوة إليهم لتدميرهم ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

وقد أثمرت دعوته، فقد دخل الإسلام في قلب ملكة سبأ، ودخل في الإسلام قومها، بعد أن كانت تلك الآلهة الباطلة تصدهم عن الإيمان ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهناك حضارات شركية كفرية ضالة، تؤله الأصنام والأوثان والإنسان، وتسخر علمها وما وصلت إليه من مخترعات لظلم الناس وقهرهم، والإفساد في الأرض، ومن ذلك حضارة اليونان والرومان والفراعنة والهنود، ولا يَغرنك ما شيدوه من قصور ومعابد، وما أقاموه من مسارح وقلاع وحصون، وما توصلوا إليه من مخترعات وأسرار

علمية، فكل ذلك باطل، لأنهم أقاموه على باطل، لقد صنع أحد الملوك الجبابرة من أصحاب تلك الحضارات البائدة هرما من جماجم أعدائه، وارتقى فوق قمته مقهقها شاربا للخمر، ووقف فرعون موسى لينادي في الناس ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [عبس: ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] .

وقال الطاغية الذي واجهه إبراهيم ﴿أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد خلّف بعض الذين بنوا تلك الحضارات آثارا لا تزال تدهش من يراها بقوة بنائها، وإحكام صنعتها، ومغالبتها لعوامل الاندثار عبر الزمان، ولكنها شيدت لأهداف فاسدة، وأهدرت في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وسخر عشرات الألوف من البشر لإنجازها، كالأهرامات التي شيد الواحد منها ليكون للفرعون قبرا.

ولقد حدثنا الله عن تلك الحضارات التي حادت عن طريق الحق، فاستحقت أن تبيد وتهلك ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِـي الْبِـلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ. فَـأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَـوْمُ لُـوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَـانَ نَكِيرِ. فَكَـأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَـمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لاَ تَعْمَـى الأَبْصَارُ وَلَـكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٦].

إن الله يحكي لنا قصة حضارات قامت ثم بادت بسبب كفرها وظلمها وطغيانها، وقد أمرنا بالنظر في آثـارهم وقصصهم وأخبارهم لنعتبر بمصارعهم، حتى لا يكون مصيرنا مصيرهم، وهذه الحضارات الكافرة اليوم التي علت علوا كبيرا، وكفرت كفرا عظيما لئن لم تؤب إلى الله وشرعه ليكونن عاقبتها الدمار، يدرك ذلك أصحاب القلوب الواعية، وتغيب الحقيقة عمن عميت أبصارهم عن الحق.

حضارة الإسلام هي الحضارة الحقة:

لقد غاب الفقه القرآني الذي تحدثت عنه فيما سبق عن كثير من المسلمين اليوم، فقد بهرتهم حضارة الغرب، فظنوا أنها الحضارة، وأصيبوا بالهزيمة النفسية، وظنـوا بالحضـارة الإسلامية الظنون.

لقد غاب عن كثير من المبهورين بحضارة الغرب أن الحضارة الإسلامية على الرغـم مما أصابها لا تزال قائمة تناطح كل الحضارات.

إن كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر لا يشـك لحظـة واحـدة في أن الرعيـل الأول وهم الرسول ﷺ وأصحابه هم أهـل الحضـارة والمدنيـة في الأوائـل والأواخـر، وهـم لم يشيدوا ناطحات السحاب، ولم يقيموا القلاع والحصون، ولم يخترعوا ما اخترعه غـيرهم، ولكنهم هـم الأرقـى والأعلـى والأفضـل في الحضـارة والمدنيـة، ولا عجـب أن يسـمي الرسول ﷺ البلدة المتواضعة في بيوتها وشوارعها ومسجدها ومزارعهـا بالمدينـة بعـد أن كانت تسمى يثرب، كأنما هي المدنية والحضارة، وفي هذا إشـارة إلى أن المدنيـة والحضـارة ليست بالمباني والقصور والمخترعات، ولكن بالدين الحق الذي يقيم الحق ويقـول الحـق، ويدعو إلى الحق ودار الحق.

نعم عندما هيئت للمسلمين الإمكانات والقدرات بنوا حضارة مادية عظيمـة فـاقت الحضارات، لكنها قامت على أصول قويمة من الإيمان والتوجـه إلى الحـق، وعندمـا كـان يزيغ أهلها عن قواعد الحضارة الإسلامية كانت ترسل عليها العواصف الهوج لتدمر مـن تلك الحضارة البنيان كما وقع للأمويين والعباسيين وأهل الأندلـس والعثمـانيين، لتقـوم مرة أخرى حضارة إسلامية جديدة على أصولها الصحيحة من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث

أهمية الثقافة وموضوعها

سبق أن بينت مدى تأثير المجتمعات على من يعيش في إطارها، فالمجتمعات الإنسـانية كالمعامل، لأنها تشكل أخلاق الناس وقيمهم وسلوكهم وعقائدهم وأفكـارهم، ومجمـوع

ذلك هو الثقافة التي توجد أسلوب الأمة في حياتها.

لقد استوطن الغربَ في القرن التاسع عشر ألوفٌ من المسلمين، ذابت ذريتهم في تلك المجتمعات واندثرت، ويعاني كثير من الذين يستوطنون تلك الديار من مسلمي اليوم من التأثير العظيم للحياة الغربية فيهم، والذين سكنوا ديار المسلمين من غير المسلمين ذاب أكثرهم في الإسلام، وأصبحوا من أبنائه، إن قيم المجتمعات وعقائدها وأخلاقها ذات تأثير في كل من يدخل في المجتمعات كما سبق بيانه.

أما موضوع الثقافة فهو القيم والموازين والعقائد والأخلاق والعلوم والأصول التي تشكل مجتمعات المسلمين، وكل ذلك داخل في الإسلام، فهو المؤثر في تشكيل أسلوب الأمة الإسلامية في حياتها، ولذا تجد تقاربا هائلا بين مجتمعات المسلمين على اختلاف بلادهم وأوطانهم، بل إن الصالحين من المؤمنين لو قاموا من قبورهم وجمعوا على صعيد واحد لوجدتهم يتعارفون فيما بينهم، ولا يكاد ينكر أحدهم على الآخر شيئا، ولذلك يعرفهم الرسول ﷺ في يوم القيامة من بين الأمم، وسيجتمعون في جنات النعيم، أخوة على سرر متقابلين، والحمد الله رب العالمين

المبحث الرابع

التغير الثقافي

المطلب الأول

أسباب التغير الثقافي

ثقافات الأمم قابلة للتغير والتبدل، فالإسلام غيَّر ثقافةَ العرب في جاهليتها، والنصارى غيَّروا ثقافة المسلمين بتكفيرهم أهل الأندلس، والتغير الثقافي له أسبابه.

ومن الأسباب اقتناع أمة أو جماعة بدين أمة أخرى أو ثقافتها، كما اقتنع العرب وكثير من الأمم الكافرة بالإسلام، ودخلوا فيه بكليتهم، أي التزموا به عقيدة وشريعة وأخلاقا ومنهج حياة، وهذا هو الذي أمر الله به في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي

السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ومن الأسباب إعمال أهل الرأي والسادة المتبوعين رأيهم وجهدهم في إحداث تغيرات جوهرية في أممهم، وأقرب مثال على ذلك ما يقوم به علماء الغرب ورجال الحكم فيهم من تغيرات في مجتمعاتهم، لأن المنهج الذي أقروه بآرائهم ووضعوا له أصولا وقواعد يجيز التغيير والتبديل، فما قررته برلماناتهم يجعل الحرام حلالا، والحلال حراما، فقد أحلوا لهم الإجهاض والزنا واللواط والسحاق والطلاق بعد أن كان ممنوعا، ومما قرروه أن كل شيء يقبل التطور والتغير، وما رآه أهل الرأي فيهم أصبح دينا مرضيا عنه وشرعة متبعة.

ومن أمثلة التغيير تغيير عمرو بن لحي بن خندف الخزاعي دين العرب، فقد كان العرب على دين التوحيد دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، واستمروا على ذلك إلى ما قبل البعثة النبوية بأربعمائة سنة حيث ظهر فيهم عمرو بن عامر الخزاعي، ففير دينهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار، كان أول من سيب السوائب)[1]، وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قُصْبَهُ، وهو أول من سيب السوائب)[2][3].

وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية، فمن قائل: إنّ عمراً كان له رئيٌ من الجن هو الذي دله على الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح، وكان قوم نوح يعبدونها، فاستخرجها عمرو، ووزعها في العرب، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام، عندما رآهم يعبدونها، فطلب منهم صنماً، فأعطوه واحداً نصبه بمكة[4].

---

(١) رواه البخاري: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٣. والقصب: الأمعاء.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٤.

(٣) والسائبة: أن ينذر الرجل إذا حدث أمر ما يحبه أن يسيب ناقة وتجعل كالبحيرة في عدم الانتفاع بها.

(٤) راجع: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ١٢١.

والسبب في أن العرب تابعت عمرو بن لحي أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان سيد خزاعة في حال غلبتها على مكة وعلى البيت بعد أن نفت قبيلة جرهم من مكة، وكانت العرب قد جعلته رباً، لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة[1].

ويقال: إن عمراً هذا هو الذي دعا الناس إلى عبادة اللات، وكان رجلاً صالحاً يلت السويق للحاج بالطائف على صخرة هناك، فلما مات زعم عمرو بن لحي أنه لم يمت، وأنه دخل في الصخرة التي يلت عليها، وأمرهم بعبادتها.

ومما يذكر عنه أيضاً أنه هو الذي غير التلبية التي كانت تعلن التوحيد لله وحده، فقد كانت التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) واستمر الحال على ذلك حتى كان عمرو بن عامر، فبينما هو يطوف بالكعبة يلبي معه، فقال: (لبيك لا شريك لك)، فقال شيخ إلى جانبه كان شيطاناً تمثل في صورة إنسان: إلا شريكاً هو لك، فأنكر هذا عمرو، فقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو، فدانت بها العرب.

ومن التغير الثقافي ما أحدثته الثقافة الغربية من تغريب بعض رجالنا ومجتمعاتنا، وسيأتي الحديث عن هذا التغيير.

المطلب الثاني

المدى الذي غير إليه الإسلام ثقافات الأمم

دخل في الإسلام أمم كثيرة لها ثقافات متعددة ومتنوعة، فإلى أي مدى غير الإسلام هذه الثقافات؟ لا شك أن كل العقائد والعادات والتشريعات تغيرت، وبقي من هذه الثقافات أمران:

الأول: ما يوافق الإسلام من قيم وفضائل وأخلاق وتشريعات.

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ١٨٧.

والثاني: ما يقع في دائرة المباح، فدائرة المباح في اللباس والأطعمة والمساكن متنوعة متعددة، ولذا تختلف عادات الأمم الإسلامية وتتنوع فيها.

وأفضل ما يمكن ضرب المثل به في هذا هو الثقافة العربية قبل الإسلام، فالإسلام غيَّر كثيراً من القضايا العقائدية، والفكرية والعلمية للأمة العربية كعبادة الأصنام، ووأد البنات، وتبرج النساء. وأقر العقائد والفضائل والشعائر الصحيحة التي كانت عند العرب كتوحيد الربوبية، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، وإكرام الضيف.

والسرّ في ذلك أن الأمم لا يتمخض فكرها وعملها للشرّ، ولكن الخير يختلط بالشرّ، ويأتي الوحي السماوي لتقويم الاعوجاج، وإقرار الخير الذي قد يكون باقياً عند تلك الأمم.

والإسلام يشكل الهيكلية الأساسية للفرد والمجتمع، ولكنه لا يتدخل في كل الجوانب والقضايا، فالشعوب التي دخلت في الإسلام لم يسلخها الإسلام سلخاً كاملاً عن مألوفها، فالفضائل قد تتعدد، ودائرة المباح واسعة، وبذلك تتمايز الشعوب التي تدخل في الإسلام فيما بينها تمايزاً واضحاً مع اشتراكها في كثير من السمات والخصائص، والإسلام من السعة بحيث يسع الأفراد والشعوب مع اختلاف خصائص الأفراد والشعوب.

المبحث الخامس

مصادر الثقافة الإسلامية

يمكن أن نحصر مصادر الثقافة الإسلامية في الكتاب والسنة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي وسير الصالحين من هذه الأمة واللغة العربية.

وإنما كانت هذه الأصول الست هي المصادر، لأن الأصلين الأولين وهما الكتاب والسنة يشكلان وحدة واحدة، فالكتاب منزل من عند الله بلفظه ومعناه، والسنة إما منزلة من عند الله وَحْياً، وإما أن الله أقر الرسول ﷺ على ما حكم به أو شرعه، والسنة كما سيأتي شارحة للقرآن ومبينة له.

والكتاب والسنة هما مصدر العقيدة والأحكام والأخلاق والقيم والموازين والتصورات دون ما عداها.

وسيرة الرسول ﷺ هي المثال العملي الأكمل للإسلام الذي تضمنه الكتاب والسنة، والتاريخ الإسلامي هو الراصد لحركة الأمة بالإسلام، ونحن نتأثر بتاريخنا بدرجات متفاوتة، وسير الصالحين من حكام هذه الأمة وعلمائها لا تزال منارات تؤثر في أبناء الإسلام، أما اللغة العربية فقواعدها ذات منهجية خاصة في طرائق الفقه والفهم، وهي تشكل العقل الإنساني تشكيلا خاصا في فقه الكلام، ولذلك كانت الطريق الوحيد لفقه الكتاب والسنة.

المصدر الأول

القرآن الكريم

أولا: التعريف بالقرآن:

القرآن الكريم هو الكتاب المنزل على رسول الله من عند الله، حمله إليه جبريل، وهو كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود، وقد حفظه الرسول ﷺ وحفّظه أصحابه، وكتبه في الرقاع، وحفّظه الصحابة لمن بعدهم، وكتبوه في المصاحف، ورواه من كل جيل عدولُه، حتى وصل إلينا متواترا محفوظا من غير تزيد فيه ولا نقصان.

والقرآن معجز في لفظه، متعبد بتلاوته، وهو أصل هذا الدين، وعز هذه الأمة، وباني حضاراتها، والمهيمن على ثقافتها، والمقيم لتشريعها، والمقوم لأخلاقها، والهادي لها إلى سواء السبيل، وقد تكفل الله بحفظ هذا القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

بينما وكل حفظ التوراة والإنجيل إلى علماء اليهود وعباد النصارى، فضيعوا الأمانة ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومن لطيف فقه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

أن بعض أهل العلم يتحدثون في مؤلفاتهم عن الجهود التي حفظت بها الأمة القرآن، ثم ظهر لنا في هذه الأيام أن الأمة هي المحتاجة إلى القرآن ليحفظها، ولولا القرآن لزالت من زمن بعيد، يدلنا على صحة هذا القول أن الأمة تزول وتتلاشى في آخر الزمان عندما يرفع القرآن، فلا تبقى أمة إسلامية تعرف دينها وعقيدتها وشريعتها، لأن الكتاب الذي كان يحفظها زال، ومن هنا نعلم مدى الغل والحقد الذي في قلوب المنصرين والمستشرقين والسياسيين الكفرة على هذا الكتاب، الذي يحفظ أمة الإسلام، ويبطل كيدَ أعدائها ومكرهم، والله غالب على أمره.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرسون رسول الله ﷺ بعلمه ورضاه، فلما أنزل الله قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] أمر حراسه بالانطلاق إلى منازلهم، تصديقا بوعد الله، ونحن نوقن بأن الله عاصم كتابه من التحريف، وحافظ له من الزوال، والله المستعان.

ثانيا: القرآن أعظم كتاب:

القرآن الكريم أعظم الكتب كلها، فهو أكمل وأفضل من التوراة والإنجيل، كما أن رسوله أعظم الرسل وأكملهم، وهو مصدق للكتب السابقة والرسالات السابقة ومهيمن عليها، وقد نسخ الله بنزوله الشرائع السماوية السابقة، فأصبح وحده الكتاب الذي يجب أن يتبع ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

ومن هنا وجب على اليهود والنصارى أن يتركوا التوراة والإنجيل، ويأخذوا هذا الكتاب، خاصة وأن كتبهم أمرتهم بذلك، وأنبياءهم أمروهم بذلك، فعدم أخذهم به كفر بكتبهم إضافة إلى كفرهم بالقرآن ورسول الإسلام.

والقرآن على ذلك هو الكتاب الوحيد الذي يملك الهداية الإلهية الربانية الصافية الخالصة، ولذلك صدق فيه القول المأثور: (من ابتغى الهدى في غيره أضله الله)[1].

---

(١) رواه الترمذي: مسندا إلى الرسول ﷺ: ٥/ ١٧٢ . ورقمه: ٢٩٠٦. وقد ضعف الترمذي إسناده . ولكن ابن كثير صحح في «فضائل القرآن» وقفه على علي بن أبي طالب .

ثالثا: وجه تسميته قرآنا وكتابا:

سمي هذا الوحي العظيم قرآنا وكتابا للدلالة على أنه يحفظ بطريقين القراءة والكتابة، وقد حفظه جبريل للرسول ﷺ بتلاوته عليه، وحفظه الرسول ﷺ لأصحابه بتلاوته عليهم، وأمر الرسول ﷺ بكتابته في الرقاع واللخاف، ولا يزال هذا القرآن يحفظ بهذين الطريقين، ولذا قيل: إنه محفوظ في الصدور، كما هو محفوظ في السطور.

رابعا: نزول القرآن:

نزل القرآن من عند الله على رسوله ﷺ مفرقا على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وقد جعل هذا التنزيل المستمر الرسول ﷺ على صلة دائمة بربه، وهذا مما أعانه على ثبات قلبه، وخفف عنه ما كان يلاقيه من عنت، وقد كان القرآن يبين معالم الإيمان شيئاً فشيئاً، ويصوغ الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، بتعاليمه المتتابعة التي تعالج النفوس، وتحدد الأهداف، وتبين الوسائل، وتكشف الشبهات، ولقد كانت تعاليمه هي الموجه والمعلم والمرشد للرعيل الأول، وفي ظلها تربى أصحاب محمد ﷺ فهم الجيل الذي تربى على القرآن.

خامسا: ما قذفه الملك في روع الرسول والحديث القدسي ليس قرآنا:

وما قذفه الملك في روع الرسول ليس قرآنا كقوله ﷺ: « إنَّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت، حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[1]، وترجمات القرآن ليست قرآناً، لأن المترجَم هو ما فقهه المترجم من القرآن، والقرآن اللفظ والمعنى.

والحديث القدسي لفظه ومعناه من الله تبارك وتعالى على الصحيح كقوله ﷺ: «قال

(١) حديث صحيح بشواهده أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: ١٠/ ٢٦، ٢٧ من حديث أبي أمامة وفي سنده عفير ابن معدان، وهو ضعيف، وباقي رجاله ثقات، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٧٢، ونسبه للطبراني في «الكبير» وأعله بعفير بن معدان، لكن له شاهد من حديث جابر عند ابن ماجه (٢١٤٤) وابن حبان (٣٢٣٩)و(٣٢٤١) والحاكم : ٢/ ٤ فيصح الحديث به انظر: «زاد المعاد» ط. مؤسسة الرسالة ص ٧٧-٧٨.

الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»[1]، والفرق بينه وبين القرآن أنه غير معجز في لفظه، ولا متعبد بتلاوته، وقد يكون متواتراً، وقد لا يكون متواتراً، أمّا القرآن فإنه معجز متواتر ولا بدَّ.

سادسا: الأدلة على صدق القرآن وصدق من جاء به:

١- إعجاز القرآن:

لقد آتى اللهُ رسولَنا ﷺ كثيرا من الآيات البينات الدالة على صدقه، فمن ذلك انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثيره الطعام القليل حتى يكفي الجمع الكثير، وأعظم ما أعطاه الله إياه القرآن، وهو آية باهرة، تخاطب القلوب والعقول، كما أنه آية دائمة إلى يوم القيامة.

وقد كانت البلاغة والفصاحة هي البضاعة التي نبغ العرب فيها، فقد أقاموا المنتديات للتباري في قول الشعر، حتى أتوا بالعجب العجاب، فجاءَهم الله بآية تبزهم فيما أتقنوه وأحسنوه، فبهرتهم آياته، حتى إن الواحد منهم ليستمع إلى آية من كتاب الله، فيخر ساجدا لبلاغتها مع أن الإيمان لم يدخل قلبه بعد.

وقد استمع الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش إلى تلاوة الرسول ﷺ القرآن فهزه القرآن من أعماق نفسه، فلما سئل عن ذلك، قال مجيبا: « والله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن.

والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته». رواه البيهقي عن الحاكم [2].

وقد تحدى الرسول ﷺ قومه، وهم الفصحاء البلغاء، بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو

(١) رواه مسلم في صحيحه ورقمه: ٢٥٧٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٦١.

بمثل سورة منه، فعجزوا، ولم يستطيعوا ذلك، هذا مع شدّة الخصومة، التي تدفعهم إلى معارضة القرآن لإبطال هذا الدين، ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا.

وإذا كان العرب قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن فغيرهم أعجز، والتاريخ شاهد على أن القرآن آية معجزة، فلم يأت من يزعم أنه أتى بمثل القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

وقد أصبح التحدي عالميا للبشرية كلها، بل للإنس والجن ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

إن الذي يتحدى به الله البشر جرت أساليبه « على معهود العرب في كلامها، فمن حروفهم ركبت كلماته، ومن كلماته ألفت جملة وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه ».[1] ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.

٢- القرآن نمط فريد من الإعجاز:

القرآن آية فريدة بين آيات الرسل جميعاً، إذ هي آية باقية دائمة خالدة، لا تزول بوفاة من نزلت عليه، كما هو الحال بالنسبة للرسل السابقين، وهي آية تخاطب العقول والقلوب، كما تخاطب فطرة الإنسان عبر الزمان والمكان، لقد كانت معجزته الوحي المتلو: القرآن، يقول الرسول ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

(١) النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز: ص٨٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٩/ ٥ ورقمه: ٤٩٨٢ ورواه مسلم: ١/ ١٣٤. ورقمه: ١٢٥ واللفظ للبخاري.

لم يشأ الحق - تبارك وتعالى - أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة حسيّة تذهل من يراها، فلو شاء لأنزل معجزة قاهرة تلوي أعناق الذين يشاهدونها، فلا يملكون معها جدالاً ولا انصرافاً عن الإيمان بها ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

لقد شاء الله أن تكون الرسالة الخاتمة رسالة مفتوحة إلى الأمم كلها، وللأجيال كلها، وليست مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثمَّ تبقى بعد ذلك قصة تروى، لا واقعاً يشاهد، ها هي معجزة نبينا محمد ﷺ بعد أكثر من أربعة عشر قرناً لا تزال كتاباً مفتوحاً، ومنهجاً مرسوماً، يستمد منه أهل كل زمان ما يقوِّم حياتهم - لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل، وأفق أعلى، ومصير أمثل[1].

٣- جوانب الإعجاز القرآني:

والقرآن معجز في كل جانب من جوانبه، وفي كل ناحية من نواحيه:

أ - فهو معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، باستقامته على خصائص واحدة، في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد، المتغير الحالات، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد، ومستوى واحد، ثابت لا يتخلف، يدلُّ على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

ب - وهو معجز في بنائه، وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه، ولا مصادفة، كل توجيهاته تلتقي وتتناسق وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها، وتلبيها، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية، إذ تقصر عن تلبيتها، وكلها مشدودة إلى محور

(١) انظر في ظلال القرآن: ١٩/ ٢٥٨٤.

واحد، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بدَّ أن يكون هناك علم شامل غير مقيد بقيود الزمان والمكان هو الذي أحاط به هذه الإحاطة، ونظمه هذا التنظيم.

جـ - وهو معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، لمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا مغالطة[1].

وهو معجز في إخباره عن المغيبات التي وراء عالم الشهادة، كعالم الملائكة والجن واليوم الآخر، والمغيبات الماضية والآتية، وما يكشف الإنسان عنه من تاريخ الإنسان، وما تأتي به الأحداث والوقائع - يصدق ما جاء به النبي الأمّي الذي لم يخط بالقلم، ولم يقرأ من كتاب.

د - وهو معجز فيما أخبر به من حقائق الكون، التي لم يهتد الإنسان إلى معرفتها، ولم يكشف بعض أسرارها إلا حديثا.

هـ - وهو معجز في تشريعاته وأحكامه في شمولها وصلاحيتها للإنسان على مرّ العصور.

و - وهو معجز في حفظه، فلم يستطع كيد الأعداء ومآمراتهم أن يغير فيه كلمة أو حرفا، وقد أخبر الله أنه حافظ له، فجاء الأمر على وفق ما أخبر به القرآن.

٤ - الإعجاز العلمي في القرآن:

العجيب في أمر القرآن أن إعجازه متجدد على مر الزمان، فكل قوم يصل إليهم هذا القرآن، فينظرون فيه نظر معتبر متبصر، فإنهم يجدون فيه من الآيات والدلائل ما يؤكد لهم أنّه من عند الله.

(١) انظر في ظلال القرآن: ١٩/ ٢٥٨٤.

لقد نبغ أهل عصرنا في العلوم التي كشفت عن شيء من أسرار الكون، فتطلعنا نبحث في مواقع النجوم، ومساراتها، وأحجامها، وأجوائها، كما بحث العلماء في تكوين الخلق وأسرار المخلوقات، فبحثوا في الذرة والخلية، وغاصوا في أعماق الأرض وقيعان البحار.

لقد تبين بغير خفاء أن كثيراً من الحقائق التي توصل إليها العلماء بعد دراسات طويلة، وجهود مضنية قد تحدث عنها هذا القرآن العظيم، أو أشار إليها إشارات واضحة، وكل هذا مما يزيد في الإيمان ويعمقه، ويدلُّ على أن هذا القرآن العظيم منزل من عند العليم الحكيم الخبير، فهذا القرآن قول الله وأمره، والخلق صنعه وخلقه، فإذا تحدث الخالق عن الخلق، وذكر شيئاً من حقائق الخلق فلا بدَّ أن يتطابق الخبر القولي مع الخلق الكوني، فالقول قوله، والخلق خلقه ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والنفوس الإنسانية تخضع خضوعاً عظيماً عندما تعلم أسراراً مذهلة لم يكن للبشر علم بها، ثم تجد أن النبي العربي الأمي، الذي لم يخط بالقلم، ولا قرأ من كتاب، ولا درس في جامعة، ولا تعلم من معلم من بني آدم تحدث عن تلك الحقيقة العلمية أو أشار إليها، فلو لم يكن هذا القرآن وحياً من الخالق لما استطاع محمد ﷺ أن يقرر هذه الحقائق المجهولة، والأسرار الخفية التي لم يطلع عليها البشر قبل هذا العصر، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

قسيس يستخدم النصوص العلمية في التوراة للدعوة للنصرانية:

وقد استخدم كاهن نصراني هذا الأسلوب في الدعوة إلى النصرانية، فقد توجه اثنا عشر طالباً صينياً كانوا يدرسون في جامعة كلفورنيا، في الولايات المتحدة الأمريكية إلى كاهن كنيسة تسمى «بركلي»، وطلبوا منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين النصراني في أيام الأحد، وكان هدفهم من وراء تلك الدراسة معرفة مدى تأثير الدين على الحضارة الأمريكية.

فدعا ذلك القسيس عالماً من علماء الرياضيات والفلك هو البروفيسور «بيتر وستونز» وطلب منه أن يتولى مهمة تدريس أولئك الشبان.

وقد اختار ذلك الأستاذ العالم بالرياضيات والفلك سفر التكوين من كتاب التوراة، وفيه بقية معلومات تتحدث عن بدء الكون، ولم يدرسهم التوراة على الطريقة التقليدية، أمضى ذلك الأستاذ فترة الشتاء يدرس مع الطلبة تلك المعلومات، ثمَّ يسجلون في كل درس الاستفسارات التي تدور في أذهانهم حول ما يسمعون، ثم يرجعون إلى الكتب العلمية في مكتبة الجامعة للبحث عن مدى صدق ما تحدث عنه سفر التكوين، ذلك السفر الذي يعود إلى أيام نبي الله موسى قبل بضعة ألوف من السنين، وبعد جلسات كثيرة متواصلة اعتنق أولئك الطلبة الدين النصراني[1].

نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولكن ما فيهما من نصوص طرأ عليه كثير من التغيير والتحريف والتبديل بفعل الترجمات المستمرة من لغة إلى لغة، وبفعل علماء الضلال الذين أدخلوا في هذين الكتابين ما ليس منهما، وحذفوا منهما نصوصاً لم ترق لهم، فالبقية من الحق فيهما اختلطت بباطل كثير، أمّا القرآن فهو آخر الكتب السماوية، لم يتغير ولم يتبدل، والحقائق الكونية الموجودة فيه كثيرة وصادقة.

٥ - نماذج من الإعجاز العلمي في كتاب الله:

لقد ألفت مؤلفات في هذا الموضوع، وأنا أذكر بعض الأمثلة مما أورده بعض أهل العلم فيها، فمن ذلك:

أ - مراحل خلق الجنين، يفصل القرآن هذه المراحل تفصيلاً دقيقاً، ولم يعرف العلماء هذه التفصيلات إلا قريباً ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] ارجع إلى أوثق المصادر الطبية التي تتحدث عن خلق الجنين، هل تجد في ما حدثنا الله عنه شيئاً

(١) انظر هذا الحادثة في كتاب: الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ص١٢١ وقد نقلها المؤلف عن ذلك الأستاذ في كتابه *The Evidence of God P. P137-38*

يناقض هذه الحقائق التي ذكرها العزيز العليم!!

ب - **الأذى الذي في المحيض**، نهى القرآن الرجال عن معاشرة أزواجهم في المحيض، وعلل ذلك بأن المحيض أذى، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد تبين للعلماء في هذا العصر أن الحيض أذى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فدم الحيض، يحتوي على جراثيم متنوعة، فإذا عاشر الرجل زوجته أثناء فترة الحيض فلا يأمن أن يصاب بالتهابات وأمراض مؤذية.

أضف إلى هذا أن الأعضاء التناسلية في المرأة تكون محتقنة أثناء فترة الحيض، وبخاصة الرحم الذي يكون محتقناً إلى درجة النزف، فإذا خالط الرجل زوجته، فإن هذا قد يؤدي إلى تمزيق أغشية رحم المرأة، فتنتشر العدوى بواسطة الجراثيم الموجودة في الأغشية إلى أمكنة أخرى مما يؤثر في صحة المرأة، ثم هناك أذى من نوع ثالث هو الأذى النفسي الذي يصيب الزوجين، فكثير من الرجال والنساء يصابون باشمئزاز ونفور نفسي ينتج عنه ضعف جنسي قد يكون شديداً.

جـ - **مكان الأعصاب التي تحس بالحرق أو الإصابة**: وهذه الأعصاب موجودة في الجلد فقط، ولذلك لو قطعت أمعاء الإنسان بعد فتح بطنه لا يحس بقطعها، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ٥٦].

فلو لم يبدل الله جلودهم إذا احترقت، فلا يذوقون العذاب، ولا يعترض على هذا بإحساس الإنسان بالبرودة والحرارة في أمعائه، لأن الذي في الجلد هو أعصاب الإحساس بالحرق، وهناك أعصاب أخرى كثيرة منتشرة في أجزاء الجسم تقوم بمهمات أخرى.

د - **الكون الآخذ في الاتساع**: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

والقوم الذين لم يقرؤوا القرآن، ولكنهم يبحثون في خلق الله تساءلوا قائلين: «ما حجم الفضاء المحيط بنا؟ وقد كان الجواب أن الفضاء ليس له حجم معين، حيث إنه يتسع باستمرار»، يقول الدكتور (أدينغتون) Eddington في هذا الموضوع: (يمكننا تمثيل النجوم والمجرات وكأنها قائمة على سطح بالون من المطاط يجري نفخه بصورة مستمرة، وهكذا فإن الأجرام الفلكية يبتعد بعضها عن بعض أكثر فأكثر بفعل التضخم كعنصر مستقل عن حركاتها العادية، وعن الآثار المترتبة على قوى التجاذب فيما بينها»، ويقول «جوليان» معقبا على مقالة البروفسور (أدينغتون): «للكون ميل طبيعي للتوسع، تقابله بصورة تقريبية قوى التجاذب الموجودة في المادة، إن نصف قطر الفضاء اليوم لا يقل عن عشرة أضعاف نصف قطره الأصلي حسب تقديرات البروفسور (أدينغتون)، ومعدل التوسع الفعلي يزداد بصورة مستمرة، ومعدل الازدياد هذا سوف يكبر في المستقبل»[1].

هـ - الشمس الجارية في الفضاء: كان الظن أن الشمس تدور حول الأرض، ثم ثبت لدى العلماء أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، ولكن العلماء أخطؤوا عندما زعموا أن الشمس واقفة، وأخيرا تبين لهم أنها تسير بسرعة خارقة، وأفضل تعبير عن حركاتها هو الجريان، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

و - في العسل شفاء للناس: منذ عهد ليس بعيداً كان الشائع في أمريكيا أن العسل ناقل للجراثيم، ولم يظهر للعلماء فوائد العسل الطبية إلا منذ عهد قريب، واليوم يدخل العسل في أكثر من خمسين دواءً، وتبين للأطباء أن العسل قاتل للجراثيم، فلم تعش فيه جرثومة واحدة، وتبين لهم أنه علاج جيد لكثير من الأمراض، كفقر الدم، وأمراض الرئة، وأمراض الجهاز التنفسي، وأمراض العين، والأمراض الجلدية، وغيرها كثير،[2] وصدق الله إذ يقول: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٨].

(١) انظر كتاب «الكون المتسع» ص١٨-١٩ وهو فصل مترجم من كتاب *g w. sullivanlimitatin of sciencej* وقد ترجمت هذا الفصل الدار العلمية بالكويت.

(٢) لقد استقصى محمد حسن الحمصي في كتابه «النحلة تسبح الله» الفوائد الطبية التي في العسل، ورجع إلى المصادر الطبية والعلمية الحديثة الموثقة في هذا المجال، وهو مطبوع منتشر في الأسواق.

١٦

٦- علوم القرآن:

اهتم العلماء المسلمون بالقرآن العظيم اهتماما كبيرا، ولم يتركوا أمرا من الأمور ولا جانباً من الجوانب يتعلق بالقرآن إلا ألفوا فيه، فقد عرفوا القرآن، وبينوا خصائصه، والغاية من إنزاله، وعرفوا بكيفية الوحي، وعرفونا بمكي القرآن ومدنيه، وترتيبه ونزوله على سبعة أحرف، والقراءات والقراء، والقواعد التي يحتاج إليها مفسر القرآن، والمحكم والمتشابه، وعام القرآن وخاصه، وناسخه ومنسوخه، ومطلقه ومقيده، ومنطوقه ومفهومه، وإعجاز القرآن ووجوه إعجازه، وأمثال القرآن، وقصصه، وحكم ترجمته.

ومن أهم علوم القرآن علم التفسير، وهو العلم الذي يعنى بشرح آيات القرآن، ويبين مقاصده وأحكامه، وقد تحدث المؤلفون في علوم القرآن عن معنى التفسير، ونشأته، ومدارسه، وقواعده إلى آخر ما أفاضوا فيه في هذا الجانب.

والمؤلفات في تفسير القرآن كثيرة، ومن أفضلها تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب.

والمؤلفات في علوم القرآن كثيرة، منها المطول والمختصر، والقديم والحديث.

ومن الكتب المطبوعة في علوم القرآن، كتابُ الإتقان في علوم القرآن «للسيوطي» «والبرهان في علوم القرآن » للزركشي، «ومناهل العرفان» للزرقاني، و «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان، ومن المؤلفات الخاصة في علم من علوم القرآن، التفسير والمفسرون للذهبي، والتحبير في علم التفسير للسيوطي، وكتاب المصاحف لسليمان بن الأشعث السجستاني، والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي بن أبي طالب، وكتاب الإقناع في القراءات السبع لابن البَاذِش، وكتاب حجة القراءات لأبي زرعة، والجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي، وأسباب النزول للواحدي، وغيرها كثير.

المصدر الثاني

السنة النبوية وعلومها

أولاً: تعريف السنة:

السنة أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، فالقولية مثل قوله ﷺ: «لا وتران في ليلة»، رواه الخمسة إلا ابن ماجه[1]، والسنة الفعلية مثل ما روته عائشة «أن الرسول ﷺ كان يرقد فإذا استيقظ تسوك، ثم توضأ، ثم صلى ثماني ركعات يجلس في كل ركعتين ويسلم، ثمَّ يوتر بخمس ركعات، ولا يجلس ولا يسلم إلا في الخامسة»[2].

ومثال السنة التقريريّة، ما رواه أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله قالا: «سافرنا مع رسول الله ﷺ، فيصوم الصائم، ويفطر المفطر، فلا يعيب بعضهم على بعض»[3].

ثانياً: منزلة السنة من القرآن:[4]

مقام السنة الصحيحة الثابتة عن الرسول ﷺ من القرآن على وجوه:

الأول: تقرير السنة مثل الأحكام التي جاء بها القرآن، كالأمر بالصلاة والزكاة والصيام، والأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، فهذه موافقة لكتاب الله، مقررة له.

الثاني: أن تأتي السنة بأحكام لها أصل في الكتاب، كنهي الرسول ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية، ونهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وأصل هذا التحريم راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن الحمر الأهلية وذوات الأنياب من السباع والمخلب من الطير من الخبائث المحرمة، وليست من الطيبات.

---

(١) المنتقى للمجد ابن تيمية: ص ١٩٤ .

(٢) أخرجه أحمد برقم: (٢٤٩٢١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) رواه مسلم: ٢/ ٧٨٧ ورقمه: ١١١٧.

(٤) راجع في هذا الموضوع: الرسالة: ص٩١. الموافقات: ٣/ ٢٤٣ وإرشاد الفحول للشوكاني: ص٣٣.

الثالث: ذكر أحكام استقلت السنة ببيان حكمها، لم ترد في كتاب الله، مثل تحريم الرسول ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها في النكاح.

الرابع: بيان ما جاء في كتاب الله مجملا أو مبهما أو عاما أو مطلقا، فتبين السنة المجمل، وتوضح المبهم، وتخصص العام، وتقيد المطلق، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد جاء الأمر بالصلاة أمراً مطلقاً عامّا ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[البقرة: ٤٣]. فبين الرسول أعداد الصلوات، وعدد ركعات كل صلاة، وأوقاتها، وكيفياتها، وما يباح وما لا يباح فيها.

وأمر القرآن بالزكاة، ﴿وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فبين الرسول ﷺ مقاديرها وشروطها.

وأمر القرآن بقطع يد السارق﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فبين الرسول مكان القطع، ومقدار المال الذي يجب فيه القطع.

ومن بيان الرسول ﷺ للقرآن توضيح المشكل أو الغامض منه على سامعه، فقد أشكل على الصحابة فقه الظلم الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فدلهم الرسول ﷺ على المعنى المراد، وأنه الشرك بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ثالثاً: حجية السنة:[1]

دل على حجية السنة القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦]. والنصوص في ذلك كثيرة.

---

(١) راجع: الرسالة للشافعي: ص٧٩. تفسير القرطبي: ١/ ٣٧.

وقد حذرنا الرسول ﷺ من الذين يردون سنته، فعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: «لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[1].

وقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ، فنشأ قوم يسمون أنفسهم بالقرآنيين، زعموا أن الواجب هو الأخذ بالقرآن دون السنة، وكذب هؤلاء فلو كانوا قرآنيين حقا، لاستجابوا للقرآن الذي يأمرهم بالأخذ بالسنة.

وقد كشف لنا أهل العلم عن المقاصد الخبيثة لهؤلاء، فهم يريدون التلاعب بكتاب الله، ولكنهم وجدوا السنة بما فيها من بيان للقرآن عائقا يحول دون مرادهم، فرأوا أنه لا بدّ من إبعاد السنة عن طريقهم، ليتمكنوا من تحقيق مقاصدهم.

وظهر الخوارج في آخر عهد الصحابة، وزعموا أن سنة الرسول ليست بحجة، وبدعة هؤلاء كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أول البدع ظهوراً في الإسلام وأظهرها ذماً في السنة والآثار، فهم الحرورية المارقة،[2] أولهم[3] قال للنبي ﷺ في وجهه: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل، وأمر الرسول ﷺ بقتلهم وقتالهم، وقاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[4].

وخطورة هذه الفرقة ومن تابعها: أنها ترد أمر الرسول ﷺ بقِحَة وجرأة، وتخالف ما جاء به، وهذا يتناقض مع ما يزعمونه من أنهم يؤمنون به رسولاً لرب العالمين، فالإيمان به رسولاً يُلزمُ طاعته، ولهذا لما قال أولهم للرسول ﷺ: «اعدل، فإنك لم تعدل» كان قوله هذا تجويزاً منه أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال، فكيف يستقيم هذا مع ادعاء هذا القائل أنه يؤمن به رسولاً لربِّ العالمين!! ولذلك قال الرسول ﷺ لأمثال هذا

(١) الحديث رواه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣) وابن ماجه (١٣) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على رسالة الشافعي: ص٩٠.

(٢) الحرورية: هم الخوارج سمّوا بذلك لانحيازهم إلى ما كان يعرف باسم: حروراء.

(٣) المراد به ذو الخويصرة اليماني، وكان ذلك مرجع الرسول ﷺ من حنين بعد قسمه لغنائم معركة حنين، والحديث في صحيح مسلم (١٠٦٣) من رواية جابر، انظر مسلم بشرح النووي: ٧/١٥٩.

(٤) مجموع الفتاوى شيخ الإسلام، جمع ابن قاسم: ١٩/٧٢.

الرجل: «أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني»[1].

وقد كذب هؤلاء بالسنن الثابتة المتواترة زاعمين: أنها تخالف القرآن، فمن ذلك تكذيبهم بحكم الرجم، وتكذيبهم بالنصاب الذي يقطع فيه السارق، فيزعمون أن الزاني المحصن يجلد ولا يرجم، وأن السارق تقطع يده في القليل والكثير، يقول ابن تيمية: «فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن، كالرجم، ونصاب السرقة، وغير ذلك فضلوا»[2].

الفرقة المفسقة للصحابة الرادة لروايتهم:

وفي الوقت الذي كانت تلك الفرقة تبث سمومها لتهدم هذا الأصل العظيم، كانت فرقة أخرى تمدّ جذورها لتفعل الفعل نفسه، ولكن بطريقة أخرى، فقد كانت هذه الفرقة تزعم: أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم ضلوا وفسقوا؛لأنهم أعطوا الخلافة لغير مستحقيها من الصحابة، وإذا كان الأمر كذلك فإنهم خونة غير عدول، وإذا كانوا خونة غير عدول فلا تقبل الأحاديث التي رووها عن رسول الله ﷺ، فكل ما رواه أهل السنة من أحاديث في دواوين السنة مثل صحيحي البخاري ومسلم والسنن لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ومسند أحمد وموطأ مالك وغيرها مردود غير مقبول عندهم.

استمرار الدعوة إلى هدم السنة:

لا تزال الدعوة إلى هدم السنة قائمة حتى اليوم.

فقد ألف أصحاب الأقلام المسمومة في القرن الأخير سيلاً من المقالات والكتب التي تشكك في السنة، فقد نشر الدكتور «توفيق صدقي» في مجلة المنار التي كان يصدرها المرحوم محمد رشيد رضا مقالين في العددين (٧، ١٢) من السنة التاسعة بعنوان: «الإسلام هو القرآن وحده» وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - خلاصة

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/٢٠٨.

ما اعتمد عليه، وفند أقواله في كتابه: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي».

وفي عام ١٣٥٣هـ نشر أحد الملاحدة في مصر وهو: إسماعيل أدهم، رسالة عن تاريخ السنة، أعلن أن السنة النبوية مشكوك فيها، ويغلب عليها الوضع، وفي عام ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م دفعت المطابع في مصر كتاباً أثار ضجّة في الأوساط الإسلامية لشناعة ما جاء فيه، وهو كتاب: «أضواء على السنة المحمدية» لمحمود أبي ريّة، وقد حمل أبو ريّة على السنة ونقلتها، فقد ذهب يطعن في صحاح الأحاديث في أصح مصادرها، وقد صرح بتكذيبه بأحاديث كثيرة وردت في البخاري ومسلم وغيرهما، وزعم أن صحاح كتب السنة حوت كثيراً من الإسرائيليات والمسيحيات على حد تعبيره، وقد ضرب عرض الحائط بالقواعد والموازين التي وضعها علماء الحديث؛ لتبين الصحيح من الباطل من الأحاديث، انظر إلى منهجه في التصحيح والتضعيف حيث يقول: «أصبحتُ على بينة من أمر ما نسب إلى الرسول ﷺ من أحاديث، آخذ ما آخذ منه ونفسي راضية، وأدع ما أدع وقلبي مطمئن، ولا عليّ في هذا أو ذلك أي حرج أو جناح»[1].

فقد جعل عقله هو المقياس في قبول الحديث أو رفضه، وإذا رضينا منهجه هذا، فإن السنة تصبح لعبة في أيدي الناس، يكذب كل فريق بما صدق به غيره.

وقد ذكر عباس متولي حماده في مقدمة كتابه: «السنة ومكانتها» أنه رأى اثنتي عشرة رسالة مطبوعة كلها تدعو إلى نبذ السنة، والاعتماد على القرآن وحده، وهذه الرسائل مشبوهة مشكوك في أمرها، يدل على ذلك أن هذه الكتب لم يدون عليها اسم مؤلفها، ولم يذكر ناشرها اسمه عليها، ولم تذكر المطبعة التي طبعتها، ثم هي بعد ذلك كله توزع بالمجان، ألا يدل هذا - كما يقول المؤلف عباس متولي - على «أنها نتاج هيئة سرية تعمل ضد الدين الإسلامي، وأنها رصدت لذلك الغرض الأثيم أموالاً طائلة تنفقها على طبع تلك الرسائل، وتوزيعها بالمجان»[2].

وقد قام جمع كبير من العلماء الغيورين على دينهم بالتصدي لهذه الحملة الجديدة

(١) أضواء على السنة المحمدية: ص١٣.

(٢) السنة ومكانتها، لعباس متولي حماده، ص٩.

القديمة على السنة النبوية، فألفوا المؤلفات، وكتبوا المقالات، وردوا الشبهات، فمن هؤلاء: الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، والشيخ أحمد شاكر، والدكتور السماحي أستاذ علوم الحديث في كلية أصول الدين بالقاهرة، والشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني الذي كان مديراً لمكتبة الحرم المكي، ومحمد عبد الرزاق حمزة المدير السابق لدار الحديث بمكة، والدكتور محمد أبو شهبة، الأستاذ في كلية أصول الدين بالأزهر، والشيخ محمد أبو زهرة، وللشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله صولات وجولات مع أمثال هؤلاء، يراها من طالع كتبه ورسائله[1].

رابعاً: علوم السنة:

اعتنى المسلمون بعلم السنة اعتناءهم بكتاب الله، فهي شارحة للقرآن ومبينة له، وقد حفظ الصحابة سنة رسول الله ﷺ، ونقلوها إلى من بعدهم، وفقهوها وعلموها للناس، وردوا عنها الشبهات، وكانت الأجيال تتناقل السنة عن طريق الحفظ، فأدخل أعداء الإسلام في حديث رسول الله ﷺ ما ليس منه، وأخطأ بعض من روى السنة في النقل فزادوا ونقصوا، فقامت حركة علمية هائلة في القرن الثاني من الهجرة النبوية لتدوين سنة رسول الله ﷺ، وغربلة الأحاديث عن طريق دراسة الأسانيد ونقدها، وقام على ذلك علماء أفذاذ، وفي هذا الوقت دونت الأحاديث وبينت الأسانيد.

والكتب التي دونت في السنة اقتَصر بعضها على الصحيح دون الضعيف والموضوع كالجامع الصحيح للبخاري والجامع الصحيح لمسلم، وبعضها غلب عليه الصحيح كالسنن الأربعة لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، والمسند للإمام أحمد وموطأ مالك، وبعضها رويت بالإسناد واختلط فيها الصحيح بالضعيف، وتولى العلماء بيان ما فيها من صحيح وضعيف، كمعاجم الطبراني الصغير والكبير والأوسط.

ولا يزال العلماء يعملون حتى اليوم في بيان صحيح الأحاديث من ضعيفها.

ولم يقتصر العلماء على العناية بهذا النوع من الأحاديث، فقد اتجه فريق من العلماء

(١) راجع كتابنا: نظرات في أصول الفقه: ص٢٦٢-٢٧٦ نشر دار النفائس. عمان. الأردن.

إلى شرح كتب السنة، وبيان ما فيها من فقه وأحكام وآداب وأخلاق وبلاغة وأدب، بل صنف بعض العلماء مدونات في كل علم من العلوم، فجمعوا الأحاديث التي في الأحكام في مدونات خاصة، مثل كتاب «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي، جمع فيه موجزا من أحاديث الأحكام مما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وشرحه ابن دقيق العيد في كتابه «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام»

وألف الحافظ ابن حجر العسقلاني كتابا متوسطا في الأحكام سماه «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» شرحه الصنعاني في كتابه «سبل السلام ». وألف مجد الدين ابن تيمية كتابا كبيرا في الأحكام سماه «منتقى الأخبار» شرحه الشوكاني في كتابه «نيل الأوطار».

وألف بعض العلماء كتبا في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، منهم ابن القيم في كتابة: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» والشيخ علي القاري في كتابه: «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» والشوكاني في كتابة: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»، وابن عراق الكناني في كتابه «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة».

وخرج جمع من العلماء الأحاديث الواردة في كتب الفقه والتفسير، والأصول والأخلاق لتعريف قارئي هذه الكتب بمدى صحة الأحاديث الواردة فيها، كنصب الراية الذي خرج فيه الحافظ الزيلعي أحاديث كتاب «الهداية في الفقه الحنفي»، وكتاب «تلخيص الحبير» لبيان الأحاديث الواردة في كتاب الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني، وكتاب إرواء الغليل لبيان الأحاديث الواردة في كتاب «منار السبيل » في الفقه الحنبلي للشيخ ناصر الدين الألباني.

وألف بعض أهل العلم في الترغيب والترهيب، منهم الحافظ المنذري، كما ألف جمع من العلماء في علوم الحديث كالنيسابوري في كتابه «معرفة علوم الحديث»، وابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»، وابن الملقن في كتابه «المقنع في علوم الحديث»، وابن كثير في كتابه: «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث».

وألف علماء آخرون في موضوعات جزئية تتعلق بالحديث كالقاسمي في كتابه «قواعد

التحديث» وابن قتيبة الدينوري في كتابه: «تأويل مختلف الحديث». وأحمد بن علي بن ثابت في كتابه «الرحلة في طلب الحديث» وابن الجوزي في كتابه «المنسوخ من الحديث».

أما شروح الحديث فهي كثيرة وأهمها كتاب «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني شرح فيه كتاب الجامع الصحيح للبخاري، وكتاب شرح صحيح مسلم للنووي.

المصدر الثالث

السيرة النبوية

أولاً: تعريف السيرة وأهميتها:

تمثل سيرة الرسول ﷺ المسار العملي الذي يجب على المسلمين أن ينسجوا على منواله، فهي الأنموذج العالمي الأرقى على مستوى البشرية كلها، وقد شهد الله له بأنه على خلق عظيم، وأخبرنا أنه: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٧، ٨].

وعلم السيرة النبوية هو العلم الباحث في حياة الرسول ﷺ من جميع أطرافها، فهو يعرفنا بنسبه ومولده ونشأته ومبعثه ورسالته وشمائله وأخلاقه، كما يبحث في أزواجه وأولاده وغزواته ووفاته ونحو ذلك.

ثانيا: اهتمام الصحابة بسيرة الرسول ﷺ:

اعتنى الصحابة رضوان الله عليهم بسيرته عناية كبيرة، فحفظوها ونقلوها لمن بعدهم، حتى إن الناظر في سيرته لا يكاد يخفى عليه خافية من أمره، وإذا كان الصحابة نقلوا سيرته خارج منزله، فإن زوجاته نقلن لنا سيرته الخاصة في منزله، ذلك أن حياته كلها موضع أسوة وقدوة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦] ولا يمكن الاقتداء به ما لم نعرف عنه تفاصيل سيرته في حياته الخاصة والعامة التي تمكننا من الاقتداء به.

وأصول السيرة محفوظة مبثوثة في آيات الكتاب وكتب السنة، ولكن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم اعتنوا بسيرته عناية خاصة، وقد أدى هذا إلى نشوء علم خاص هو علم السيرة النبوية.

ثالثا: المؤلفات في السيرة:

وقد ابتدأ التأليف في علم السيرة في نهاية القرن الأول الهجري، وأول من ألف فيها عروة بن الزبير بن العوام عام (٩٢) هجرية، ولكن هذا المؤلف والمؤلفات القريبة منه بادت وضاعت[١]، وأول من جمع السيرة بتوسع محمد بن إسحاق المتوفى عام (١٥٢)هـ، وقد جاء ابن هشام المتوفى سنة (٢١٨)هـ فاختصر سيرة ابن إسحاق وهذبها وحققها، وكتب لهذا الكتاب الانتشار والذيوع، وأصبح هو العمدة في كتب السير.

والذين ألفوا في السيرة كلها أو في جزئية منها في القديم والحديث كثيرون، منهم السهيلي في «الروض الأنف» وأبو ذر الخشني في «شرح السيرة النبوية» والنووي في «السيرة النبوية» وابن حزم في «جوامع السير».

ومن الكتب المعاصرة المطبوعة كتاب «صحيح السيرة النبوية» للشيخ إبراهيم العلي[٢] وكتاب تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، «ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين» لمحمد الخضري، وفقه السيرة للغزالي، وفقه السيرة للبوطي، واختصر الشيخ ناصر الدين الألباني «الشمائل المحمدية» للترمذي.

كما حقق الدكتور عبد الله عبد القادر الفادني كتاب «نهاية السول في خصائص الرسول ﷺ».

المصدر الرابع

التاريخ الإسلامي

التاريخ في اللغة - كما يقول حاجي خليفة - تعريف الوقت مطلقا، يقال: أرخت الكتاب تأريخاً، وعلم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك.

(١) جمع الدكتور مصطفى الأعظمي مغازي عروة بن الزبير من بطون الكتب وطبع تحت عنوان «مغازي رسول الله ﷺ».

(٢) نشرته دار النفائس. عمان. الأردن وهو قيم في بابه لاعتماده على الصحيح من الأحاديث.

وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم.

والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع[١].

أولا: أهمية التاريخ الإسلامي وأثره في الثقافة الإسلامية:

التاريخ الإسلامي سجل لأعمال الأمة الإسلامية، فهو يقوم بدور الراصد لحركتها بالإسلام حال استقامتها عليه، أو انحرافها عنه، كما يرصد حركة علمائها وحكامها ومصلحيها.

ويعرض للفتن التي تهب عليها من داخلها، وحركات الإصلاح التي تحاول رد العاديات عنها، كما يرصد حركتها مع غيرها من الأمم في الحروب والمعاهدات، ويرصد العلاقات التجارية والثقافية وغيرها، والفتن والحروب التي تثور عليها من خارجها.

والمنهج العلمي الذي علمنا إياه الإسلام أن نرصد التاريخ رصدا صادقا من غير تحريف لوقائعه وأحداثه، لا فرق في ذلك بين صفحاته الناصعة المضيئة، وصفحاته المظلمة القاتمة.

وفي ضوء ذلك نروي تاريخ خلفائنا الراشدين، وعلمائنا الأبرار المصلحين، ومقاتلينا الأخيار، كما نروي أخبار الجبابرة في تاريخنا، وأخبار الزعماء الأشرار الذين سفكوا دماء العباد، ونهبوا ثروات الشعوب، وضيعوا أموال الأمة، وتمالؤوا مع أعداء الإسلام.

وندرس في تاريخنا رفعة الأمة وارتقائها وانتصاراتها، كما ندرس فرقة الأمة واختلافها وتنازعها وهزائمها.

إن المؤرخين المسلمين حاولوا جاهدين أن يكونوا أمناء في رصدهم لحركة الأمة

(١) كشف الظنون: ١/ ٢٧١.

الإسلامية في تاريخها صعودا وهبوطا.

إن الفائدة العظمى من دراستنا لتاريخنا أن نعرف كيف تحركت الأمة بالإسلام والأسباب التي أدت إلى تلك الحركة، ونتائج تلك الحركة سواء كانت نتائج طيبة أو سيئة، وبذلك نستفيد من دراسة التاريخ.

إن النماذج الراقية الرائعة في تاريخنا كثيرة، ولرقيها أسباب كثيرة ولها نتائج طيبة، ويجب علينا أن نتعرف على تلك الأسباب، ونستفيد منها في واقعنا المعاصر الذي نعيشه، ومن ذلك حركة الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، كيف حملوا الإسلام، وكيف بلّغوه، وكيف أقاموا حياتهم عليه، وكيف خططوا لمقاومة الأعداء، وكيف حققوا النصر، وردوا المكر، وأزالوا الطغيان.

كما نحاول أن نتعرف على أسباب الحركة الخاطئة لكثير من الخلفاء والزعماء والرؤساء، وأسباب الهزائم والدمار الذي حلّ بنا في مختلف العصور.

وقد تعرض تاريخنا الإسلامي للتشويه في القديم والحديث، وسيأتي الحديث عن جهود المستشرقين في تشويه هذا التاريخ[1].

ثانيا: المؤلفات في التاريخ الإسلامي:

ألف في التاريخ الإسلامي مؤلفات كثيرة عنيت بدراسة أحداثه ووقائعه ودوله وخلفائه وحكامه وشعوبه وعلمائه، وتنوعت هذه المؤلفات، فمنها المؤلفات الشاملة التي تحكي ذلك كله مثل كتاب البداية والنهاية لابن كثير ولم يقتصر فيه مؤلفه على التاريخ الإسلامي، بل بدأه بوقائع تاريخ الإنسانية، ثم تاريخ الإسلام إلى عصر المؤلف، وأدخل في ذلك تاريخ الدول، وتاريخ القادة والحكام والعلماء إلى عصره.

وألف مؤرخ الإسلام الذهبي مؤلفات عظيمة في التاريخ الإسلامي، بعضها موجز صغير، مثل كتاب «تاريخ دول الإسلام» ألفه في جزءين حواهما مجلد واحد، وبعض

(١) راجع بحثنا بعنوان «التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف» في كتابنا «محاضرات إسلامية هادفة» ص٨٥. نشر دار النفائس. عمان. الأردن.

مؤلفاته مطول مثل كتابه الذي سماه «بتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام».

وقد رتبه على السنين، وأخذت السيرة النبوية منه مجلدا، ومغازي الرسول ﷺ مجلداً، وتاريخ الخلفاء الراشدين مجلدا، والدولة الأموية قرابة خمسة مجلدات، وبين يدي منه ستة وعشرون مجلدا، وقد بلغ فيه إلى حوادث سنة (٣٨٠)هـ، ولا أدري كم كان سيبلغ عند تمامه، فقد توفي رحمه الله تعالى في سنة (٧٤٨) هجرية.

وقد ألف رحمه الله تعالى سير أعلام النبلاء وطبع هذا الكتاب في خمسة وعشرين مجلدا، المجلدان الأخيران منه خصصا للفهارس، ثم ألحق به ثلاثة مجلدات، اثنان منهما في السيرة النبوية، والثالث في سيرة الخلفاء الراشدين.

وقد ألفت مؤلفات في تاريخ مدينة واحدة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر، أو دولة واحدة مثل «تاريخ الدولة العلية» (العثمانية) لمحمد فريد المحامي، أو لتاريخ خليفة واحد، مثل: «المصباح المضيء في خلافة المستضيء» لابن الجوزي.

المصدر الخامس

العلماء المسلمون ودورهم في ثقافة الأمة الإسلامية

العلماء الربانيون من هذه الأمة هم الشموس والأقمار التي تضيء سماء هذه الأمة، وهم النجوم التي يُهتدَى بها، وهم **يؤثّرون في الأمة بطريقين:**

الأول: سيرهم العطرة التي تمثل الإسلام، حيث يمثل هؤلاء المسار الصحيح الذي يريده الله من عباده، فيؤثّرون في المسلمين، فيندفعون للتأسي والاقتداء بهم، ومن منا لم يتأثر بسيرة الصالحين من علمائنا أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة.

وعلى مدار التاريخ الإسلامي برزت جموع هائلة من العلماء المصلحين، ودونت سيرهم في عشرات المجلدات أمثال الأئمة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والطبري والقرطبي وابن كثير والذهبي وغيرهم.

وسير هؤلاء وأمثالهم لا تزال غذاءً لأمة الإسلام وناشئة الإسلام، إن كثيراً من الناس لا يستطيعون معرفة الحق إذا كان مرقوما في الكتب ومخطوطا بالقلم، ولكنهم سريعا ما يبصرونه إذا كان متمثلا في رجال يدبون على الأرض، ويكونون أكثر بصيرة به إذا تمثل في مجتمع يقيم الإسلام في كل مناحي الحياة، ومن هنا لم يكتف رب العزة بحفظ القرآن الكريم من التغير والزوال، بل أخبرنا على لسان رسوله أنه سيبقى هذا الدين متمثلا في فئة ظاهرة على الحق إلى قيام الساعة.

وهذا يعني تمثيل الإسلام في واقع مشهود مرئي، ولذا فإن ظهور هذه الفئة حجة على الكافرين، كما أن القرآن حجة على العالمين.

الثاني: تفقيه أهلُ العلم المسلمين ما جهلوه، وإصلاح ما غيروه وبدلوه، ووقوفهم في وجه الانحرافات والفتن التي تهب على الأمة الإسلامية، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وتسديد الحكام.

ومن هؤلاء العلماء الربانيين إمامُ أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل الذي وقف في وجه فتنة القول بخلق القرآن، فقد أرادت بعض الفرق الضالة أن تغض من كتاب الله بجعله كأي كتاب آخر، وهذا يفقده قداسته من جهة، كما أن في ذلك تكذيباً لما أخبرنا الله وأخبرنا به رسوله ﷺ من أن القرآن كلامه.

وقد وقف الإمام أحمد كالطود الشامخ في ميدان الدفاع عن الحق، فخاصم أهل الباطل وخصمهم ودحض حججهم، حتى عادت هباءً منثورا، فعند ذلك زجوا به في السجن، وأعملوا السياط في جسده، فلم يقبل أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، وذهبت دولة الباطل، وبقي الحق الذي استمسك به إمام السنة واضحا جليا ليس به خفاء.

ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦٤-٧٢٨هـ) الذي ورث علم السلف وأحيا السنة وقمع البدعة، وكانت له صولات وجولات في كل الميادين.

فقد كان في عصرة معلما لعلوم الكتاب والسنة على نهج السلف الصالح، وأحيا عقيدة السلف، وواجه الذين أرادوا حرف مسار الفقه الصحيح من المعتزلة والخوارج

والشيعة وعلماء الكلام، وبين المنهج الحق الذي تفقه النصوص في ضوئه، وأورد الحجج الدالة على فساد ما تلبست به تلك الفرق، ومنهم الذين يكذبون بالسنة، أو يقبلون بعضها ويردون بعضها.

كما واجه التعصب المذهبي والجمود الفكري، وخاض ميدان الجهاد في سبيل الله، فقاتل فلول الباطنية مع المجاهدين، وخاض الحرب في مواجهة التتار المارقين، وكان لدوره في الحرب والقتال أثر عظيم في معركة شقحب، التي هزم فيها التتار شر هزيمة.

المصدر السادس

اللغة العربية

أولا: أهمية اللغة العربية:

اللغات عامة واللغة العربية خاصة ذات أهمية كبيرة في حياة الإنسان، فبها يعبر الإنسان عما يجول في ضميره، وبها يتواصل مع غيره، وبها تعرف العلوم وتحفظ، وقد بين عبد القاهر الجرجاني أهمية اللغات في مقدمة كتابه: «أسرار البلاغة» فقال: «الكلام هو الذي يعطى العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجنى صنوفَ ثَمرها، ويدل على سرائرها، ويبرزُ مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبه فيه على عِظَم الامتنان، فقال عز من قائل: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

فلولاه لم تكن لتتعدَّى فوائد العلم عالِمَه، ولا صحّ من العاقل أن يَفْتُق عن أزاهير العقل كمائمه، ولَتعطّلت قُوَى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوَت القضيّةُ في موجودها وفانيها، نَعَم، ولوقع الحيُّ الحسَّاسُ في مرتبة الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مقفّلة تَتَصوَّنُ على ودائعها، والمعاني مسجونةً في مواضعها، ولصارت القرائح عن تصرّفها معقولة، والأذهان عن سلطانها معزولة، ولما عُرف كفرٌ من إيمان، وإساءةٌ من إحسان، ولما ظهر فرقٌ بين مدح وتزيين، وذَمّ وتهجين»[1].

(١) أسرار البلاغة: ص٢. وتتصون، أي: تحكم الصيانة على ودائعها.

ثانيا: فضل القرآن على اللغة العربية:

مع أن اللغة العربية هي الوعاء الذي حفظ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إلا أن للقرآن على اللغة العربية فضلاً كبيراً، فقد أصبحت هي اللغة المقدسة عند المسلمين، التي يتقرب إلى الله بتعلمها والكلام بها، وفي ذلك يقول سيد محمد العطاس: «هي الوعاء الذي حمل الوحي الإلهيّ، وقد غير هذا الوحي مكانتها بين اللغات الإنسانية، بحيث أصبحت اللغةَ الحية الوحيدة التي اصطبغت بصبغة إلهية، وهي بهذا المعنى لغة جديدة بلغت أقصى درجات الكمال، وهي من ثم - وخاصةً مفرداتها الإسلامية الأساسية - غيْرُ خاضعة للتغيير والتطوير، ولا هي محكومة بتقلبات التغير الاجتماعي كما هو الحال في كل اللغات الأخرى التي تستمد حياتها وفاعليتها من الثقافة والتقاليد.

إن رفع شأن اللغة العربية بوصفها اللغة التي أوحى الله تعالى بها القرآن الكريم إلى الإنسانية جعلها - دون سواها من اللغات - لغة حية محفوظة لا تتغيرُ ولا تتبدل على مرّ العصور. فلغة القرآن هي النموذج الأعلى لبلاغة العربية وسمو عبارتها، وهي المعيار لكل أصناف التعبير اللغوي. ومن ثم فإن تحديد مقاصد الإسلام وفهم تعاليمه أمرٌ محكوم بالمجال الدلالي لآيات القرآن الكريم لا بالتغيير الاجتماعي»[1].

ثالثا: لِمَ كانت اللغة العربية مصدرا من مصادر الثقافة الإسلامية:

تعد اللغة مصدرا من مصادر الثقافة الإسلامية للأسباب التالية:

١ - اللغات لها دور في تشكيل عقلية أصحابها في طريقة التفكير والفقه عن الآخرين، والبيان عما يجول في القلب من معاني، وأوضح ما يكون الأمر عندما يتعلق بالكتاب والسنة وما دُوِّن في العلوم باللغة العربية، فالذي يريد فقه ذلك كله وخاصة الكتاب والسنة فهو محتاج إلى أن يتعلم معهود العرب في خطابها، لأن القرآن أنزل بلسان العرب، والرسول ﷺ عربي.

(١) مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية لسيد محمد العطاس: ص٧١، ٧٢ بتصرف يسير.

يقول الإمام الشافعي: «خاطب الله العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها»[1].

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: «إن هذه الشريعة المباركة عربية، لا مدخل فيها للألسن الأعجمية»[2]، وقال: «القرآن نزل بلغة العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [يوسف: ٢] وقال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وقال: «فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة»[3]، وقال أيضا: «أنزل القرآن على لسان معهود العرب في ألفاظه الخاصة وأساليب معانيها»[4].

وإذا كان الطريق إلى فقه القرآن هو معهود العرب في كلامها، فإن هذا الطريق يطبع العقل الإنساني بطرائق معينة في منهجية الاستدلال قد لا تجدها في غير اللغة العربية، فمن ذلك - كما يقول الشافعي: «أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياق أنه يراد به غير ظاهره»[5].

ومثّل للعام الظاهر يراد به العام الظاهر بقوله تعالى:﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر: ٢٦] يدخل في هذا النص كل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك.

ومثّل للعام الظاهر يراد به العام، ويدخله الخاص بقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥] ففي قوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ خصوص، لأنه لم يكن جميع أهل القرية ظلمة، وقد كان فيهم المسلم، ولكنهم قليلون.

(١) الرسالة: ٥١.
(٢) الموافقات: ٢/ ١٠١.
(٣) المصدر السابق:
(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٠٣.
(٥) راجع الرسالة: ٥٣-٦٣.

ومثال العام الظاهر الذي يجمع العام والخاص قوله: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتا﴾ [النساء: ١٠٣] عامة في البالغين العاقلين دون من لم يبلغ ودون البالغين من المجانين.

ومثال العام الظاهر يراد به الخاص قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] أراد بالناس الأُولى قليلين بأعيانهم، وبالناس الثانية قريشا ومن جاء معها، ولم يرد الناس جميعا.

ومن الصنف الذي يبين سياقه معناه قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء:١١] أراد الظالم أهلها.

٢ - اللغة العربية إحدى مقومات الوحدة العربية الإسلامية، فالعرب على اختلاف ديارهم يستطيعون أن يتواصلوا فيما بينهم إذا ما تحدثوا بالفصحى، وها هي الدول الأوربية كانت تتحدث لغة واحدة، ثم تعددت لغاتها بعدد دولها، فأصبح هذا العدد من اللغات يشكل حائلا يحول دون وحدتها.

ولما كانت اللغة هي لغة القرآن، فإننا نجد المسلمين من غير العرب يتوجهون نحو اللغة تعلما وفقها، لأنها لغة القرآن ولغة الرسول ﷺ.

يقول الشافعي: «على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك»[1].

وقد نبغ كثير من العلماء غير العرب بالعربية، وأضحوا فيها أئمة سبقوا العرب أهل اللغة أمثال سيبويه.

٣ - اللغة العربية لغة العلم عند الأمة العربية، فكل علومنا مصاغة بهذه اللغة، وميراثنا العلمي فيما يتعلق بالشريعة وغيرها لا يمكن الوصول إليه من غير فقه وإتقان للعربية، فإذا نبذنا العربية انقطعنا عن ديننا وتراثنا وتاريخنا.

---

(١) الرسالة: ص ٤٨.

رابعا: الكيد للعربية والتآمر عليها:

عرف أعداء الإسلام أهمية العربية، فكادوا لها بألوان من الكيد، وتآمروا عليها بأشكال مختلفة، ومن ذلك:

١ - الدعوة إلى ترك العربية، وإحلال اللغات العامية في مختلف البلاد محلها، وقد قاد هذا التوجه المستغربون من بني جلدتنا، وساندهم المستعمرون، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً هائلة، ولكنها باءت بالفشل.

٢ - الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، لقطع الأمة عن مئات الألوف من الكتب المكتوبة بالحروف العربية، كما فعلت تركيا في الربع الأول من القرن العشرين. فانقطعت صلتها بماضيها، وباعدت بين الأتراك والعرب.

٣ - تدريس العلوم في الجامعات باللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية، كأن اللغة التي أنزل الله بها كتابه، وحفظت علوم البشر على مدار أكثر من ألف عام أصبحت عجوزا عقيما، لا تصلح للعلم، وتلك فرية، وأي فرية.

لقد أوهمونا بأننا لا نستطيع النبوغ في العلوم إلا بدراستها في لغة أصحابها، وتلك فرية، فالأمم جميعا تترجم إلى لغاتها ما تحتاج إليه من علوم الآخرين، ولا تشغل أبناء الأمة جميعا بتعلم لغة الآخرين.

٤ - إفساد الذوق باختلاف طرائق استعمال المفردات والأساليب بغير معهود العرب في كلامها، ومن ذلك ما سمي بالحداثة، ومنه صياغة الشعر على غير الأوزان العربية.

٥ - جعل العربية مبدأ يجمع العرب على اختلاف أديانهم، ليصبح فيه العربي المسلم أخا للعربي النصراني أو اليهودي أو المجوسي أو الملحد، بينما تفرق هذه الدعوة الضالة بين العربي المسلم وأخيه المسلم من سائر الأجناس، وهذه هي الدعوة إلى القومية القائمة على العصبية، وهي دعوة جاهلية، تحاد الإسلام، وتناقض القرآن، وتخرج العربية عن الدور المحدد لها.

المبحث السادس

الثقافة الإسلامية بين الأصالة والانحراف

يوصف الشيء بالأصالة عندما يقوم على أصول ثابتة قوية، ويتصف بصفات قويمة مرضية. جاء في لسان العرب ما خلاصته: «الأصل: أسفل كل شيء وجمعه أصول، ورجل أصيل: له أصل، ورأي أصيل: له أصل، ورجل أصيل: ثابت الرأي عاقل، وفلان أصيل الرأي، ومجد أصيل أي ذو أصالة»[1].

وجاء في المعجم الوسيط: «الأصالة في الرأي جودته، والأصالة في الأسلوب ابتكاره، والأصالة في النسب عراقته، ... والأصل: كرم النسب»[2].

وتكون الثقافة الإسلامية أصيلة إذا اتصفت بالصفات التالية:

١ - أن تسود فيها قيم الإسلام وموازين الإيمان، وتخفت القيم الضالة والموازين الظالمة؛ فيسود فيها الإيمان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم، وقول الحق، والتحلي بالصدق، ويوزن الناس بإيمانهم وعملهم الصالحات، ويرتفع سوق العلم والعلماء، ويبذل الناس أنفسهم في سبيل الله، وتتلاشى في ثقافة الأمة قيم الظلم، والفخر بالأنساب والطعن بالأحساب، والتباهي بالأموال والأولاد.

٢ - قيام الثقافة على أصولها من الكتاب والسنة، في كل شؤون الحياة، في العقيدة والتشريع والأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

٣ - أن يتعالى الإيمان في نفوس أبنائها، حتى يصبح واحة وارفة الظلال، تقي أصحابها ضنك الحياة، المتمثل في الشقاء النفسي، والعقد النفسية، وقسوة القلوب، والجري وراء الشهوات.

٤ - قوة الرابطة الإسلامية، بحيث يحقق المسلمون أخوة الإسلام فيما بينهم، بعيدا عن العصبيات الجاهلية، فيكونون كما وصفهم الرسول ﷺ كالبنيان يشد بعضه بعضا،

(١) لسان العرب: ١/ ٦٨.
(٢) المعجم الوسيط: ١/ ٢٠.

وكالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

٥ - سيادة الأخلاق الإسلامية، التي تجعل عمل الخير في المجتمع الإسلامي سجية وطبيعة، تصدر عن أصحابها عفوا من غير تكلف، وعند ذلك تصبح الحياة فيما بين المسلمين سهلة لطيفة، سماحة في البيع والشراء، وسماحة في التقاضي، وعفو عند المقدرة، وحنو على الصغير، ورحمة بالكبير، ورفض للضيم، وبذل للمال لمن يحتاجه، وغير ذلك مما تفيض به الأخلاق الحميدة على أصحاب المجتمعات التي يتخلقون بها.

٦ - تشكل أمة الإسلام بحيث تصبح أمة واحدة يجمعها أصول لا تملكها أي أمة من أمم الأرض، فالأمة الإسلامية تعبد إلها واحدا، وتتبع دينا واحدا، ورسولها واحد، وقبلتها واحدة، فلم لا تكون أمة واحدة!!

٧ - التكافل بين المسلمين، فالمجتمع الإسلامي مجتمع متراحم، يسارع الأقوياء والأغنياء فيه إلى سد خلة الفقراء، ورعاية الأيتام، ونصرة المظلومين، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

٨ - السعي لاستعمار الأرض وامتلاك القوة، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. فالأمة الإسلامية أمة منتجة، وليست جماعة من الكسالى القاعدين.

وإذا حادت الأمة عن الأصول والصفات التي ترتفع بها إلى الأصالة فإنها تضعف وتتهاوى حتى تصبح في الحضيض، وقد دخل خط الانحراف في ثقافة الأمة الإسلامية، فعلت فيها قيم النفعية والأثرة، وضعفت قيم الإيمان، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعاد التنادي بالعصبيات، والفخر بالأنساب، والطعن في الأحساب، والتباهي بكثرة الأموال والأولاد، وبدت مظاهر الشرك هنا وهناك، وقل التراحم بين المسلمين، وأصبح التوكل عند بعض المسلمين تواكلا، والأخذ بالأسباب عجزا، وكثر سريان الخرافة والدجل في صفوفهم.

المبحث السابع

خصائص الثقافة الإسلامية

المراد بالخصائص الصفات التي تجعل الثقافة متفردة عن غيرها، وهذا معنى الخصائص في اللغة، جاء في المعجم الوسيط: «خاصة الشيء ما يختص به دون غيره».

والثقافة الإسلامية ثقافة فريدة متميزة بين الثقافات، ذلك أن ثقافات الأمم هي نتيجة لأفكارها ومعتقداتها وعاداتها، فالثقافة وإن شكلت إطاراً يحيط بكل أفراد المجتمع بحيث يوجه قلوبهم ووجوههم وجهة معينة إلا أنها نتاج المجتمع نفسه.

أما الثقافة الإسلامية فإن أصولها العقائدية والأخلاقية والعملية وحي إلهي رباني، فالإسلام هو الذي أنشأ عقائد الأمّة الإسلامية وتصورها وأخلاقها وقيمها، وهو الذي حدد مسارها، وبين منهجها، ووضع لها قانونها، وأقام لها الضوابط التي تعصم الفكر من الانحراف، وهيمن الإسلام على الدراسات الإنسانية، وقوم الفنون التي تمارسها الأمّة.

خلاصة القول أن الإسلام هو الذي صنع الأمّة، فالفرق بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى ليس به خفاء.

والثقافة الإسلامية بين الثقافات الإنسانية نسيج وحدها، فهي كالزيتونة التي وصفها الله في كتابه ﴿زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] والسرّ الكامن وراء ذلك أن الذي بنى أصول هذه الثقافة، وحدد مسار فروعها هو الإسلام، والإسلام منهج إلهي رباني فريد.

وسنتناول في هذا الفصل أهم خصائص الثقافة الإسلامية.

١ - صبغة إلهية ربانية:

سبق أن بينا أن الثقافة الإسلامية هي المحيط الذي يكوّن أسلوب حياة الأمة، وأصدق ما يوصف به نمط الحياة الذي تحياه الأمّة الإسلامية - أنّه صبغة إلهية، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

فالله أنزل لنا دينا بين لنا فيه الحال التي ينبغي أن نكون عليها في أحوالنا الظاهرة والباطنة، كما وضّح لنا الغاية التي ينبغي أن نهدف إليها من وراء الحياة، لقد أوضح لنا ديننا الأسلوب الذي تنهجه الأمّة الإسلامية في حياتها، وقد سماه القرآن الكريم: الصراط المستقيم، وشرع لنا أن ندعوه أن يهدينا إليه في كل ركعة من ركعات الصلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا الطريق مخالف لطريق اليهود والنصارى والمشركين في القديم والحديث ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة: ٧].

ولم يتوف الرسول ﷺ حتى اتضح الطريق والمنهج الذي تسير عليه الأمّة الإسلامية في حياتها، ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقد سمى القرآن هذه الطريق سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥] فسبيل المؤمنين كانت واضحة بينة، وهي التي سلكها الرسول ﷺ، واقتدى به أصحابه فيها عملا بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[الأحزاب: ٢١].

وقد سار على ذلك النهج التابعون وأتباعهم، ومن شذّ عن هذا السبيل عدّ فاسقاً أو كافراً بحسب المعصية التي يرتكبها، وهذا السبيل الإلهي الرباني سبيل ثابت، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ، فقالت: « إن خلق نبي الله كان القرآن »[1]، والخلق الصفة الثابتة الراسخة.

وإذا تفكر المسلم في شأنه وحاله وجد أنه يعرف سبيله وطريقه: في عقيدته، وإرادته، وأعماله القلبية: من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والحب والبعض، كما يعرف ما يأخذ وما يدع من أعمال، وما يقوم به من عبادات تجاه ربه، بل يعلم سبيله في كثير مما يدخل في العادات من طعام ولباس ونكاح ومسكن واجتماع وافتراق... الخ.

وقد بلغ من دقة هذا السبيل الذي أسميناه أسلوب حياة الأمّة أن المسلم عندما يتنقّل في ديار الإسلام لا يشعر بالغربة مهما نأت به الديار، ذلك أن سبيل المؤمنين في

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٥١٣. ورقمه: ٧٤٦.

عقائدهم وتصوراتهم وأفكارهم وعباداتهم وأعمالهم سبيل واحد.

وفي ظلال هذه الصبغة الإلهية التي تحيط بالأمّة الإسلامية تتربى الأجيال، فتتشرب الأسلوب الذي تحيا به الأمّة، ويتربى الناشئة على الإسلام وتعاليمه وآدابه وأخلاقه.

٢ - اتساع آفاقها:

الثقافات الإنسانية ثقافات ضيقة، يعيش أفرادها في إطار ضيق من الحياة الدنيا، أمّا الثقافة الإسلامية فآفاقها رحبة واسعة، وقد عبر عن هذه المعنى موفد المسلمين إلى قائد جيش الفرس، حيث قال له مبينا الهدف الذي خرجوا من أجل تحقيقه: « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة »[1].

فالبشر في المجتمعات الجاهلية تحكمهم قوانين البشر، وعادات البشر، وأعراف البشر، وتسري فيهم العقائد الضالة المحرفة، وكل ذلك يشكل ضيقا في الأفق، ويحجر على الفكر، ويجعل العباد يعيشون في دائرة ضيقة تقيد أعمالهم، ويزيد الأمر آصاراً وأغلالاً أن العباد يحصرون أنفسهم في ظلال المناهج الجاهلية في دائرة الحياة الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وهذه الدائرة الضيقة، وذلك الضلال عن الآخرة يحوّل الحياة إلى شقاء وأي شقاء، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

انظر كيف حصر الشيوعيون أنفسهم في نظرية ضالة لا تؤمن بخالق الكون، وتؤمن بأزلية المادة، وهي نظرية فاسدة، وانظر كيف أقاموا الحياة على ما سموه بصراع الطبقات، وكيف جعلوا الإنسان محكوماً للمادة، تسيره وتوجهه، ولا يملك لنفسه شيئاً، ومثل هذا المبدأ يجعل الحياة تضيق ضيقا لا يقلّ عمّا كان يعيشه العابد للوثن، والساجد للصنم، والزاعم أن عيسى ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا. وقد هوى هذا

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٣٩، وموفد المسلمين هو ربعي بن عامر.

المبدأ وزال، وهكذا مبادئ الضلال محكوم عليها بالزوال.

والثقافة الغربية كبقية الثقافات المعرضة عن هدي السماء، قتلت أشواق الروح، وقطعت الصلة بين النفس وخالقها، فجفت فيها ينابيع المودة والمحبة والطمأنينة، وتَحوّل الإنسان في عالم الغرب إلى آلة كبقية الآلات التي تعمل بغير شعور وإحساس.

٣ - عالمية الثقافة:

تقوم الثقافات البشرية على اعتبارات وأسس محكومة بالنظرة القومية والعنصرية، يقول رينان الفرنسي: « جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوروبي، فإذا ما نَزَلْتَ بهذا الجنس إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور، فكل ثائر عندنا هو بطل لم يتح له ما خلق له، هو إنسان ينشد حياة البطولة، فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو كائن لم يخلق لحياتنا»[1].

وصنف هتلر البشر فجعل أمته في المرتبة الأولى، وجعل العرب في المرتبة الرابعة عشرة، ولم يبق وراءهم إلا اليهود والكلاب، وكان شعاره: ألمانيا فوق الجميع، ولا يزال داء العنصرية يسري في الأمم الغربية، فالأسود هنالك ممقوت مكروه، يضرب ويهان، ويحرم من حقه في التعليم والوظائف، ولذلك فإن الزنوج هناك يثورون بين فترة وأخرى، ويقتلون ويدمرون، وينتسب بعض الناس إلى رقعة من الأرض يسمونها الوطن، بها يعتزون، وإليها ينتسبون.

أما الثقافة الإسلامية فليست ثقافة العرب ولا الفرس والبربر، وليست ثقافة الرجل الأبيض ولا الأسود، إنها ثقافة البشر كلهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم، لم توضع لجنس ولا لون ولا بيئة معينة، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الإسلام يقرر أن انقسام البشر إلى شعوب وقبائل إنما هو للتعارف، لا للتناحر

(١) الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان: ص ١٦.

والتقاتل والتفاضل، أما قياس التفاضل في الإسلام فهو التقوى: الإيمان والعمل الصالح.

وفي ظل هذا المقياس الذي وضع للناس كافة يرتقي الناس جميعاً، ويتنافسون في ميدان العمل الصالح، لا فرق بين أبي بكر العربي، وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وتدخل الشعوب في الإسلام، فلا تشعر بغضاضة في نفوسها، ذلك أن الناس في ظل الإسلام أخو ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد جاءت تعاليم الإسلام للإنسان باعتباره إنسانا بغض النظر عن جنسه ولونه وموطنه، فعناصر الثقافة الإسلامية: التربوية، والنفسية، والروحية، والأخلاقية جاءت أحكامها وفق الطبيعة الذاتية للإنسان مجردة عن إطار الزمان والمكان، ذلك أن الإنسان كإنسان ثابت لا يتغير، ولا يتبدل في روحه وعواطفه وأشواقه وضروراته وغرائزه، والجانب المتغير في الإنسان هو الجانب العملي، أو الجانب الذي يتعامل فيه الإنسان مع الكون.

إن هذا الدين يسع البشرية كلها، لأنه من عند الله، منزل إلى الناس كلهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ سبأ: ٢٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١].

ولذلك أوجب الله على اليهود والنصارى ترك شريعتهم واتباع هذا الدين، كما أخبرنا رسولنا ﷺ أن عيسى عليه السلام عندما ينزل آخر الزمان سيحكم بالقرآن لا بالتوراة ولا الإنجيل، وسيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويصلي وراء رجل من المسلمين، ولا يقبل من اليهود والنصارى الجزية، بل الإسلام أو القتل.

وكما أن الرسالة المحمدية هي الرسالة العالمية في الزمان الآتي، فإنها حاكمة على الرسالات السماوية في الزمن الماضي، فقد أخذ الله على كل واحد من الرسل أن يتابع محمدا ﷺ إذا أدركه زمانه وبعث في وقته ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

إن الشريعة الإسلامية لا تناقض الرسالات السماوية السابقة، بل تصدقها وتكملها، فالرسالة الأخيرة أكملت كل الرسالات السابقة.

والشريعة اليهودية والشريعة النصرانية لا يصلح أي منهما أن يكون شريعة عالمية لأمرين:

الأول: ما سبق بيانه من كونهما حرفتا وبدلتا، ودخل فيهما ما ليس منهما.

الثاني: أنهما شريعتان خاصتان ببني إسرائيل، ولم ينزلهما الله لتكونا شريعتين عالميتين، فَجَعْلُهُمَا شريعتين عالميتين ظلم، وأي ظلم، لأن الله لم يجعلهما كذلك، ونصوص التوراة والإنجيل في غاية الوضوح باختصاص هاتين الشريعتين ببني إسرائيل دون غيرهم.

٤ - الشمول والكمال:

يتصف الدين الإسلامي الذي تقوم عليه ثقافتنا بالشمول والكمال، ويتبدى هذا الشمول في أمور كثيرة نكتفي بذكر ثلاثة منها:

الأول: العقيدة التي تعطي المسلم تصوراً كاملاً عن الإنسان والكون والحياة، كما تعطي تفسيراً للقضايا الكبرى التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، فالإنسان كان ولا يزال يتساءل عن أصله ونشأته، ومصيره ونهايته، ومَنْشَئِهِ وعلاقته بخالقه ومُنْشِئِه، ودوره في هذا الوجود، والعوالم الخافية المستورة وراء هذا الكون المشهود، وعلاقته بتلك العوالم، والعقيدة تجيب عن ذلك كله.

الثاني: إحاطة الشريعة بالإنسان، فهي تصاحبه طفلاً وشاباً وشيخاً، بل إنها تعنى به قبل ميلاده، وبعد وفاته، فهناك أحكام تتعلق بالجنين، وأحكام تتعلق بالموتى، من غسل وتكفين وصلاة وقسمة ميراث، ونحو ذلك، وتعنى أيضاً بجوانب حياته كلها، في زواجه وطلاقه، وطعامه وشرابه، وأفراحه وأتراحه... كما تعنى بروحه وجسده وعقله.

وكما عنيت الشريعة بالفرد عنيت بالمجتمع في كل المجالات التي تهمه: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

الثالث: الشريعة قانون شامل يضم كل القوانين التي سماها البشر بأسماء مختلفة، كالقانون الدستوري، والقانون المدني، والقانون الإداري، والقانون المالي، والقانون الجنائي، والقانون الدولي، ولكنها تتميز عن القوانين البشرية أنها تقوم على الوحي المنزل من عند الله.

٥ - التوازن:

إن الموازنة والمواءمة بين الحقوق والواجبات، الحقوق بعضها مع بعض، والواجبات بعضها مع بعض، والموازنة بين مطالب الروح والجسد أمر عسير ليس بالسهل، فالإنسان يغرق بطبعه في الميل إلى أحد الجانبين، وهذا الميل يسبب فساداً للفرد والمجتمع.

وقد جاءت الشريعة حافظة هذا التوازن، فأمر الإسلام الإنسان بعبادة ربه، ولكنه أمره أن يصرف شيئاً من اهتمامه لنفسه وأولاده ومجتمعه، وجعل ذلك نمطاً من التعبد.

وأمره أن يصرف همه للدار الآخرة، ونهاه عن أن ينسى نصيبه من الدنيا، ونهاه عن تحريم الطيبات التي أباحها الله لعباده، ونهى الرسول ﷺ أصحابه عن الانقطاع للتعبد، وترك الجهاد والزواج. ووازن بين مطالب الروح والجسد، كل ذلك وفق توازن عجيب يبرز خصائص الإنسان، ويقيم الحياة على نحو فريد.

٦ - الإيجابية الفاعلة:

إحدى السمات البارزة في ثقافة الأمة: الإيجابية الفاعلة، فالإسلام يأمر أتباعه بالسعي في الأرض وإعمارها، وفي مجال الحياة الاجتماعية لا يتوقف عند النهي عن الإفساد في الأرض بالقتل والسرقة والزنا وشرب الخمر وتخريب الحضارة والعمران، ولكنه يأمر بالإصلاح والتعمير، وتستطيع أن ترى هذا المبدأ من خلال أمر الإسلام بالمعروف ونهيه عن المنكر، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ونراه من خلال الأمر بالتعاون على البر

والتقوى والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إن الثقافة الغربية تقول: لا تؤذ غيرك، لا تؤذ جارك، لا تَرْمِ الأذى في الطريق، ولكن الإسلام يزيد على ذلك، فيقول: أحسن إلى غيرك، أحسن إلى جارك، أمط الأذى عن الطريق: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي الحديث « الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان». رواه البخاري ومسلم، وفي صحيح مسلم: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

٧ - الواقعية:

ليس المراد بالواقعية الرضا بالحال التي عليها الإنسان في حال سموه، وفي حال انحداره، كما هو حال الأدب الهابط الذي يصف الواقع المريض الذي يعيشه كثير من البشر، ولكن المراد بالواقعية أنها تضع التشريعات للإنسان من حيث هو إنسان، فالإنسان فيه القوة والضعف، يعلو أحياناً ويهبط أحياناً، وهو بحاجة إلى الشريعة التي ترقى به إلى مدارج الكمال، وتثني على استقامته إذا استقام، وتبصره بخطئه حين يخطئ، وتفتح له باب التوبة إذا عصى، وتشرع له الأخذ بالرخص حين الضعف والمرض.

والشريعة الإسلامية التي تفعل ذلك كله، أحلت الطيبات وحرمت الخبائث، وأحلت للمضطر تناول ما حرم عليه من الطعام، وأوجبت الوضوء للصلاة، وأباحت التيمم حين فقد الماء أو حين عدم القدرة على استعماله، وألزمت بالصلوات في أوقاتها بأعدادها المقررة، ورخصت بالجمع والقصر في السفر، وشرعت الفطر للمسافر في رمضان. وكثير من المذاهب تفترض في الإنسان المضي في الحياة على استقامة، وحين يعجز البشر عن المضي وفق التشريعات المثالية يفقدون الثقة بتلك التشريعات أو يفقدون

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١/ ٧٢. ورقمه: ٩ ، ورواه مسلم في صحيحه: ١/ ٦٣. ورقمه: ٣٥.

الثقة بأنفسهم.

وجانب آخر هو أن الشريعة لا تكلف البشر فوق ما يطيقون، بعكس الشرائع التي ترهق الناس بالتكاليف التي تسبب لهم العنت والإرهاق، فتصبح بذلك آصاراً وأغلالاً.

٨ - الحركة حول محور واحد:

لم تزل المذاهب البشرية المختلفة تتنازع فيما بينها، فالمنهج الذي يسير عليه البشر البعيدون عن الوحي الإلهي خليط من الأفكار والمبادئ والعقائد والتصورات، وهذه قد تتضارب فيما بينها، وتلك طبيعة المبادئ الأرضية ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢].

فالمجتمع الواحد البعيد عن هدي السماء كالمجتمع الغربي اليوم - قد توجد فيه المثل التي تطالب بالأخذ بالفضيلة، وهي بقايا الدين النصراني المحرف، ولكن المذهب المادي النفعي القائم على الكفر بالله واليوم الآخر يناديه كي يغرق في الشهوات، ويعيش لدنياه فحسب، ودين الإنسان في الغرب يناديه كي يؤمن بالمسيح إلهاً ورباً، فهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وعقله يرفض هذا المنطق.

وهذا الاختلاف والتضارب في المناهج يمزق النفس الإنسانية، ويجلب لها الصراع الذي ينتج الهموم والحيرة والقلق.

أمّا في الإسلام فإنَّ حياة المسلم تدور حول محور واحد ثابت، فهو يؤمن بالله ربّاً واحداً لا شريك له، فلا تعدد في الأرباب ولا تعدد في الآلهة، ومن الله يستمد تصوره ومعرفته لربه، ومعرفته للكون من حوله، ولما وراء الكون المشهود، كما يستمد منه القيم والأحكام التي يقوّم بها الأشياء، فلا تضارب ولا تعارض، ولا تصادم، لأنه يأخذ كل ذلك من الله تبارك وتعالى، ودين الله وحْدة متكاملة تتوافق ولا تتعارض، وبذلك تتحقق طمأنينة القلب، وانشراح النفس، وهدوء البال، فلا توجد لديه عقد نفسية، ولا صراع داخلي، ولا قلق، ولا هموم.

٣٠

الفصل الثالث

الصـــراع الثقافي

المبحث الأول

تعريف الصراع وبيان حقيقته وتحديد مجالاته

المطلب الأول

التعريف بالصراع الثقافي

مدار الصراع في لغة العرب على الغلب، يقال: صارع فلان فلانا، أي غالبه فغلبه، وطرحه أرضا، وفلان صُرَعه: كثير الصّرع لأقرانه، والصُرَعَه المبالغ في الصراع الذي لا يغلب[1].

وتطلق المصارعة اليوم على رياضة بدنية عنيفة تجري بين اثنين يحاول كل منهما أن يصرع الآخر على أصول مقررة[2].

والمراد بالصراع الثقافي المغالبة بين ثقافتين أو أكثر، يراد لكل ثقافة أن تؤثر في الأخرى أو تزيلها وتحل محلها، بحيث يصبح أصحاب الثقافة المغلوبة تبعا للثقافة الغالبة، كما جرى للثقافة العربية الجاهلية، حيث زالت وبادت وتسيدت بدلا منها الثقافة الإسلامية، وكما تحاول الثقافة الغربية صرع الثقافة الإسلامية اليوم.

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٤٣٠، النهاية لابن الأثير: ٣/ ٢٤ والمعجم الوسيط: ١/ ٥١٢.

(٢) المعجم الوسيط: ١/ ٥١٢.

المطلب الثاني

الفقه القرآني لحقيقة الصراع وطبيعته

يحاول علماء الاجتماع والتاريخ الكشف عن حقيقة الصراع بين البشر، وقد يصيبون وقد يخطئون، وقد يغلفون الحقيقة بغلاف خادع براق، بهدف تبرير مصارعتهم لغيرهم من الأمم والاستيلاء على خيراتهم ومقدراتهم.

وقد أعلمنا ربنا أن أصحاب كل مبدأ أو دين يدعون أنه الأفضل والأكمل، وأنهم أصحاب الهداية والرشد، ويطالبون غيرهم أن يسلكوا مسلكهم، ويسيروا مسارهم، ومن هؤلاء اليهود والنصارى الذين ادعوا أنهم وحدهم الذين يملكون الهداية ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥] ولذلك فإنهم لا يرضون عن غيرهم حتى يسلكوا مسلكهم، ويتابعوهم على دينهم ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقد غلوا في تقدير أنفسهم، فادعوا ما ليس لهم، وزعموا أنهم ﴿أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]

وتغنى أدباؤهم وشعراؤهم بأمجادهم وآدابهم وأخلاقهم، فأنشدوا في ذلك الأشعار، وحاكوا القصص والأخبار، ودبجوا الخطب والأسفار.

ودعاوى اليهود والنصارى في أنفسهم ادعاها غيرهم من الأمم، فقد ادعاها مشركو العرب عباد الأوثان، والفرس عباد النيران، والصابئة عباد النجوم والكواكب، والشيوعيون والاشتراكيون قبل أن يديل الله دولتهم في هذا العصر، كما يدعيها العلمانيون المهيمنون على كثير من دول الغرب اليوم.

لقد أكذب الله أصحاب هذه الدعاوى، وبين أنها أهواء وتخرصات تقوم على أوهام وفلسفات باطلة، فالذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه رد دعوتهم وأبان عوارها بقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

والذين ادعوا أنهم أصحاب الجنة دون سواهم قال فيهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ

بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال للذين زعموا أن الهداية قصر عليهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال أيضا: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن القاعدة التي تحكم بني آدم على اختلاف توجهاتهم قررها الحق تبارك وتعالى في قوله : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

إن البشر قديما وحديثا يتصارعون فيما بينهم، كل يدعي أنه الأفضل، وتحاول كل أمة أن تسود على غيرها، وتسيطر على مقاليد الأمور، والفقه القرآني يعلمنا أن هذا الصراع يقوم على باطل عند المتصارعين كلهم، إلا فئة واحدة هي التي التزمت بالهدى الذي جاءها من عند الله دون سواه، وقد تكون هذه الفئة شخصا واحداً كإبراهيم في زمانه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً﴾ [النحل: ١٢٠] وقد تكون أمة كأتباع موسى الذين آمنوا به واهتدوا بهدي الله الذي أنزل إليه، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ومنهم أمة محمد ﷺ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد سبق أن بينا أن الرسل والأنبياء والذين اتبعوهم وآمنوا بهم يمثلون أمة واحدة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلاَمُ﴾ [الأنبياء: ٩٢] فالرسل والأنبياء دينهم واحد ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

المطلب الثالث

الصراع حتمي أزلي في حياة الإنسان[1]

الذي يسبر غور النفس الإنسانية، ويراقب تصرفات البشر، ويدرس تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم يصل إلى نتيجة مؤكدة لا يكاد يختلف عليها، وهي أن الصراع أزلي في حياة الإنسان، وان وجود عدو يصارعه الإنسان أمر ضروري له، فلا يتصور للإنسان وجود على ظهر هذه الأرض إن لم يوجد العدو الذي يوجه إليه عداءه، ومتى خلت حياته من عدو وجه عداءه إلى من لا يعاديه.

فإذا رفض بعض الناس النزول إلى حلبة الصراع، ورفضوا معاداة الآخرين، فإن هؤلاء الذين رفضت عداءهم ينصبون لك الأحابيل، ويضعون لك المخططات لتدميرك وهلاكك، ولا يلقون سلاحهم حتى يصلوا إلى أهدافهم، هذا الذي قررناه هنا نص عليه القرآن الكريم، فالقرآن يقرر أن البشر دائمو الاختلاف فيما بينهم ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ومن الاختلاف ينشأ الصراع، ويتعادى البشر فيما بينهم، وانظر إلى خيرة البشر، وهم الأنبياء والمرسلون، هل خلت حياتهم من الصراع؟ وهل هادنهم الناس، وتوقفوا عن معاداتهم؟﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢].

تلك سنة من سنن الله في خلقه، فما أرسل الله من رسول، ولا بعث من نبي إلا عودي، وتألبت عليه قوى الشر، فلا يجوز للمرء أن يطمع في أن يعيش حياة هادئة، لا يعكر صفوها مكر الأعداء، وظلم الأشقياء، ومؤامرات الطواغيت، بل على المرء أن يوطن نفسه على خوض صراع طويل مرير، لا يتوقف إلا إذا توقف في الإنسان نبضات قلبه، ولا يهدأ إلا إذا هدأت أنفاسه، والذين لا يريدوننا أن نفقه هذه الحقيقة اليوم هم أعداؤنا أو أولياؤهم، الذين يريدون تدجيننا كي ينالونا بسهولة عندما تسنح الفرصة لهم.

(١) راجع بحث: «مجالات الصراع» في كتابي: محاضرات إسلامية هادفة: ص١١٣.

المطلب الرابع

ضرورة تحديد العدو في معركة الصراع

وما دام الصراع ضروريا لا انفكاك عنه، ولا خلاص منه فلا بدَّ من تحديد العدو الذي ينبغي أن تتجه قوانا وجهودنا إلى مصارعته ومحاربته، فتحديد العدو ضروري جدا، وإذا لم يوفق الإنسان في معرفة عدوه فإنه يتخذ العدو صديقا، والصديق عدوا، فيوجه المرء قواه لتدمير نفسه، ونفع عدوه.

تعريف الله لنا بأعدائنا من الجان وبني الإنسان:

وحتى لا نضل في مجال الصراع، فإنَّ الله عرفنا بأعدائنا من اللحظة الأولى لإحيائنا، فعندما خلق الله أبانا آدم حدد له عدوه تحديداً واضحا بَيّنا: ﴿إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وكما فعل الله بآدم فعل ببنيه، فقد أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب يعرفهم بأعدائهم، ويحذرهم من هؤلاء الأعداء: ﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [فاطر: ٦]،﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

وعداوة الشيطان للإنسان عميقة الجذور، لا يمكن أن تتوقف أبدا، فعندما طرده الله من جنته ورحمته، وأسقط كرامته، وأبطل طاعته لعصيانه أمر ربه في السجود لآدم طلب من الله إبقاءه حيّا إلى يوم القيامة، لا لشيء إلا للكيد لبني آدم وإهلاكهم وتدميرهم ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧].

ويقف في صف الشيطان من البشر كل الذين خرجوا عن منهج الله ودينه وشريعته على اختلاف طرائقهم ومذاهبهم، فقد انقسم البشر إلى فريقين وحزبين: فريق يتولى الرحمن ويحبه، ويطيعه ويسير وفق هديه وشريعته، وفريق يتولى الشيطان ويطيعه، وينفذ مخططاته.

وليس من الضروري أن يقر حزب الشيطان بالولاء الصريح للشيطان، فكثير منهم يلعنه، ولكنهم من أوليائه وحزبه، لأنهم يسيرون وفق خطواته التي اختطها، وكل مبدأ ومنهج وعقيدة وطريق يخالف ما جاء من عند الله فإن الشيطان يرضاه، ويبارك خطوات القائمين عليه، فمراده إهلاك العباد، وكل مخالفة لمنهج الله فهي إهلاك كلي أو جزئي للعباد.

وقد حذرنا الله من الشيطان وأولياء الشيطان، وأمرنا بمعرفتهم ومعرفة مخططاتهم، والوقوف صفا واحدا في حربهم، وحذرنا من الانخداع بهم: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]،﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ﴾[الأعراف:٢٧] ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وأمر الله أولياءه بقتال أولياء الشيطان ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦].

ومن هؤلاء الأعداء اليهود والنصارى بعد بعثة محمد ﷺ، وقد حذرنا ربنا من توليهم ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

مجالات الصراع:

إن الدارس للقرآن ليتعرف على مجالات الصراع يجد أن الصراع الذي ينبغي أن تتجه إليه جهود المسلم طيلة حياته شيء واحد هو الباطل الذي جاء به الشيطان، وكل الباطل فهو من الشيطان، وهو يصارعه في كل المجالات، والمجالات ثلاثة: النفس الإنسانية، والمجتمع الإسلامي، والمجتمع الإنساني.

المجال الأول: النفس الإنسانية:

النفس الإنسانية هي المجال الأول الذي يحاول الشيطان غزوه وإقرار الباطل فيه، وسبيله لتحقيق مراده هو الوسوسة وتزيين الباطل، وإثارة الشهوات، وسبيلنا للخلاص

منه الاحتماء بالله والالتجاء إليه، كما علمنا ربنا في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

والوسواس الخناس الذي أمرنا بالاستعاذة منه هو الشيطان، فالشيطان كما في الحديث «يجري من الإنسان مجرى الدم »[١]، وهو واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإذا غفل العبد عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر الله خنس، كما يقول حبْرُ هذه الأمة عبدالله بن عباس.

والشيطان يحاول أن يثني المؤمن عن كل خير، فإذا شاء العبد أن يدخل في الإسلام ويترك الكفر جاء الشيطان يجادله ويقول له: كيف تترك دين الآباء والأجداد، هل كان آباؤك ضالين، وهل كنت قبل هذا ضالا؟ وماذا يقول الناس عنك؟ وإذا أراد المسلم أن يهاجر إلى دار الإيمان، قال له الشيطان: كيف تترك بلادك التي نشأت فيها، وعشيرتك التي تنتمي إليها؟ وكيف تترك الأحباب والأصحاب ؟! وإذا رام المسلم أن يقاتل في سبيل الله، جاءه الشيطان يثبطه ويوهن عزيمته، ويقول له: كيف تقاتل، وفي القتال إذهاب النفس والمال، فييتم الأولاد، ويذهب المال، وتنكح الزوجة ؟!!

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِهِ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فَتُقتلُ، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد»[٢].

ولا يدع الشيطان أمراً يحبه الله إلا زين للعبد مخالفته، ولا أمراً مكروها لله إلا وزين له مقارفته، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

---

(١) رواه مسلم. ورقمه: ٢١٧٤.

(٢) صحيح سنن النسائي. ورقمه: ٢٩٣٧. وأخرجه أحمد (١٥٩٥٨)، وابن حبان (٤٥٩٣).

والإنسان في صراع دائم في نفسه مع الشيطان، حتى في الصلاة يأتي فيذكّره من الدنيا ما لم يكن يذكره قبل الصلاة، ليصرفه عن صلاته، ويشغله عنها.

والمؤمن الحق لا يكاد الشيطان يلم به حتى تداركه رحمة الله فيبصر ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، إنما هو طائف عارض يتجلى سريعا عندما يعود إلى الله ومنهجه. أما إخوان الشياطين فإنهم غرقى في ضلالهم لا يجدون خلاصا ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ [مريم: ٨٣].

المجال الثاني: المجتمع الإسلامي:

فالمسلم مطالب بأن يحارب الشرّ الذي قد تتلبس به زوجته وأولاده وآباؤه وإخوانه وخلانه وجيرانه، في المنزل أو الوظيفة أو المتجر أو السوق، والشر يتمثل في المخالفات الواقعة للشريعة الإسلامية.

وقد أخبرنا الله أن أخص خصائص الأمة الإسلامية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يعني محاولة دائبة لإقرار الفضائل التي جاء بها الإسلام ومقاومة الرذائل، وإزالة المنكر من المجتمعات الإسلامية بمثابة عملية تطهير دائبة لهذه المجتمعات من القاذورات والأوساخ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ [التوبة: ٧١] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن هذا المنطلق قام الحكام العادلون والعلماء المصلحون بمقاومة عوامل الفساد في المجتمع الإسلامي، وحاربوا الباطل والفساد بجميع أشكاله.

المجال الثالث: المجتمع الإنساني:

المجال الثالث الذي نصارع فيه الباطل، هو العالم كله، وذلك بدعوة الناس جميعا إلى الدخول في الإسلام والانتهاء عن الشرك، واتباع دين الله الذي أنزل للناس كلهم، وترك

الأديان الوضعية أو المحرفة، ومن هذا المنطلق حارب المسلمون العرب المشركين وحاربوا الفرس والروم، ووصلوا بالإسلام إلى الهند والصين، ودخلوا أوربا، كل ذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

المبحث الثاني

الثقافات التي واجهت الثقافة الإسلامية عبر تاريخها

أول ثقافة واجهها الإسلام الثقافة العربية الجاهلية التي كانت تُعَبِّدُ العرب للأصنام والأوثان، وتقيم حياتهم على السلب والنهب، وتدفعهم إلى أن يقتلوا أولادهم خشية إملاق، ووأد بناتهم خشية العار، ثم واجهت اليهودية والنصرانية التي كان أصحابهما يدّعون أنهم الأفضل والأكمل.

ثم واجه المسلمون حضارة فارس القائمة على تأليه النور والظلمة، والتي تعبد الناس للنيران والنجوم والكواكب والشمس والقمر.

ومن الحضارات التي واجهت الحضارة الإسلامية ثم بادت الحضارة التترية، ولم يكتف الإسلام بهزيمة هذه الحضارة، بل أدخل كثيراً من أبنائها الإسلام، وواجه المسلمون الشيوعية التي وجدت لها أنصارا في الأمة الإسلامية، ولكنها بادت واندثرت كما وقع للتتار من قبل.

التعريف بالحضارة الغربية وتحديد عناصرها

ومن الحضارات التي واجهت الحضارة الإسلامية الحضارة الغربية، وسنقصر الحديث عليها ، لأنها هي التي لا يزال لها وجود ظاهر في مصارعة الثقافة الإسلامية

أولا: التعريف بالحضارة الغربية:

الحضارة الغربية هي تلك الحضارة التي تولدت عن الانصهار التاريخي لثقافتي الإغريق والرومان القدامى وقيمهم وتطلعاتهم، ثم اندمجت مع اليهودية والمسيحية، ثم تطورت وتشكلت بفعل الشعوب اللاتينية والجرمانية وشعوب الشمال.

فمن الإغريق استُمِدَّتْ العناصرُ الفلسفية والمعرفية المنهجية وقواعدُ التربية والأخلاق والجمال، ومن روما استُمدت قواعد القانون وفنُّ إدارة شؤون الحكم والدولة؛ ومن اليهودية والمسيحية استُمدت مبادئُ العقيدة الدينية، ومن الشعوب اللاتينية والجرمانية والشمالية استُمدت الروحُ والقيم التقليدية المؤسِّسة للاستقلال الوطني، وكذلك روح التطور والتقدم في العلوم الطبيعية والمادية والتقانة التي بلغت بها هذه الشعوب، أوجَ قوتها وتقدمها.

ولقد كان للإسلام كذلك إسهامٌ مقدر في الحضارة الغربية في ميدان المعرفة، وفي غرس الروح العقلية والعلمية في البحث، إلا أن ما قدمه الإسلام قد جرت إعادةُ صياغته في بوتقة الثقافة الغربية بحيث تَمَّ دمجه وصهرهُ مع كل العناصر الأخرى المكونة للشخصية الغربية والمحددة لكيانها. (١)

ثانيا: عناصر الحضارة الغربية:

يمكن أن نحدد عناصرها في الآتي:

١ – تعددية مصادر الثقافة، فليس لها مصدر واحد كالثقافة الإسلامية، بل مصادرها ثقافة الإغريق، والدين اليهودي والنصراني، وثقافات الأمم السابقة، ثم العلماء الذين أثروا في مسيرتها ونهضتها.

٢ – هذه المصادر متعارضة متناقضة، ولذلك جاءت حياة الغرب متناقضة كذلك.

٣ – اعتمادهم على فلسفة دنيوية بعيدة عن النظر إلى الدين واليوم الآخر.

٤ – لا يوجد عند هذه الثقافة اليقين الذي يجده المسلم، فثقافة الغرب متطورة باستمرار، والمتنفذون هناك يخططون لمسيرة مستمرة متطورة دائما، ولذلك فكل شيء قابل للتغيير، حتى الثوابت متغيرة متبدلة.

(١) مداخلات فلسفية: لسيد محمد العطاس. ترجمة محمد الميساوي: ص١٥٦ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

٥ – للتحرر والحرية في هذه الثقافة قيمة كبرى، فهي تريد أن تتحرر من الأديان والأخلاق والقيم، ولذلك أبعدت الكنيسة عن الحياة، وتعاظمت الحرية الفردية حتى أبيح الزنا واللواط والخمر والربا والإجهاض وغيرها.

ثالثاً: موقف الحضارة الغربية من الديانة النصرانية:

لقد أنزل الله دينه على رسله ليحكم حياة الناس، وقد ألزم الله اليهود باتباع شريعة التوراة، كما ألزم النصارى باتباع التوراة والإنجيل، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾[المائدة: ٤٦-٤٧]

وحرف اليهود والنصارى الإنجيل، ثم نسخ الله شريعة التوراة والإنجيل بالقرآن، فأصبحا غير صالحين لحكم الحياة، واستمر الدين المنسوخ المحرف مهيمناً على حياة الناس في الغرب أكثر من ألف وخمسمائة عام، ثم اكتشفوا أن حياتهم لم تسر على منهج سواء في ظل حكم التوراة والإنجيل، كما اكتشفوا أن الدين قيد مسيرتهم، وأعاق تقدمهم، كما تبين لهم أن العقيدة النصرانية القائمة على التثليث (الآب والابن والروح القدس) لا تتفق مع العقل والمنطق، وبدأ صراع بين الكنيسة التي تصر على الهيمنة على حياتهم وبين العلماء الذين رأوا الدين آصارا وأغلالا.

ولم يزل صوت العلماء الذين قاموا في وجه الكنيسة يتعالى، حتى هزموا رجال الدين وحصروهم في داخل كنائسهم، وجعلوا الدين قضية فردية، فمن شاء أن يتوجه إلى معبوده بالعبادة فلا حرج عليه، ولكن ليس للمعبود شيء من حياتهم، وليس له أن يتدخل في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد.

وتقدم الغربيون بعد أن أزاحوا الدين جانبا، فعمروا الأرض، وبلغوا شأوا بعيدا في كل مناحي الحياة، وظنوا أنهم إنما ارتقوا بسبب إبعادهم للدين عن الحياة، وبسبب النظام الذي اختطه علماؤهم ومشرعوهم.

إن الذي فعله الغربيون ليس جديدا في المجتمعات الإنسانية، بل هو قديم قدم الضلال التي تلبست به البشرية في عصورها الخالية، فقد رفضت تجمعات كثيرة على مر التاريخ الإنساني الاستجابة لوحي السماء، وأصرت على أن تقيم حياتها بعيدا عن هدي الله، وقد سبق الحديث عن الحضارات الطالحة، كالحضارة اليونانية، والرومانية، والفرعونية والتترية، وأهل هذه الحضارات الضالة جميعاً يرفضون دين الله وحكمه وشرعه، ويصرون على حكم الحياة بعقولهم التي قد تدرك شيئا من هذه الحياة، ولكنها لا تعرف شرع الله ولا دينه، ولا تراعي في تشريعها أنها مسؤولة محاسبة بين يدي الله وقد وصف الله هؤلاء بأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والعلمانيون اليوم كالدهريين الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

إن الأقوام الذين أقاموا حياتهم وفق ما رأى عقلاؤهم بعيدا عن الدين الحق كثيرون، ومن هؤلاء من لم يدع مجالا لدين الله في حياتهم، ومنهم الذين خلطوا الدين بغيره، ومنهم الذين اخترعوا آلهة باطلة عبدوها من دون الله.

إن الإشكال الذي وقع فيه الغربيون أنهم لم يجدوا الدين الصحيح الذي يقيم الإنسان على منهج سواء، فظنوا أن الأديان كلها كذلك، وأكبر رد عليهم أن المسلمين رفعهم دينهم إلى عنان السماء، فلما ضلوا عنه بعض الشيء انحطوا وهزموا وضعفوا.

إن علمانية الغرب اليوم دين وضعي يقوم على فلسفة وقيم طوروها عن فلسفة اليونان والرومان وقيمهم، وهذا الدين الذي وضعه أهل الرأي فيهم لا يؤمن بدين منزل من عند الله، ولا يؤمن بالغيبيات والقدر، التي جاء بها الإسلام، فتعطي الاثنين حكما واحدا، مع أنهما مختلفان، والأمران المختلفان من الظلم أن يعطيا حكما واحدا.

لقد فرح أهل الغرب بما حققوه في واقع الحياة، ولكن فرحتهم لم تكتمل، فمصير الحضارات التي ترفض دين الله الحق إلى زوال، لقد انهارت حضارة الفراعنة، كما انهارت حضارة اليونان والرومان، وقبل سنوات معدودات انهارت الشيوعية، وما لم تصلح الحضارة الغربية مسارها فمصيرها مصير غيرها.

أساليب الغزو الغربي الصليبي للأمة الإسلامية

يمكن تصنيف الأساليب التي استعملها الغرب في صراعه معنا عبر تاريخه إلى خمسة أنواع، هي:

١ - الغزو العسكري كما فعل في الحروب الصليبية وحروب الاستعمار، وغرس دولة لليهود في قلب العالم الإسلامي.

٢ - الغزو التنصيري لتكفير المسلمين.

٣ - الغزو الاستشراقي بقصد إفساد ديننا وأخلاقنا وتاريخنا وعلومنا.

٤ - فرض العلمنة على الأمة الإسلامية بإقصاء دينها المتمثل في عقيدتها وشريعتها وإحلال أسلوب حياته مكان ذلك.

٥ - فرض العولمة على الأمة الإسلامية، وذلك بقصد الهيمنة عليها في كل شيء.

وسنتناول هذه الأساليب في هذا المبحث في خمسة مطالب.

تمهيد

الأهداف الكبرى للغزو الصليبي الغربي

تنوعت طرائق الغرب لغزو أمة الإسلام وديار الإسلام، فقد استخدمت القوى كلها، العسكرية والتنصيرية والاستشراقية، ومع تعددها فإنها تعمل في وحدة واحدة، تتكامل فيما بينها لتحقيق أهداف واحدة، وسيأتي ذكر هذه الأهداف في حديثنا عن كل واحد من القوى الثلاث، ولكن المراد هنا ذكر الأهداف الكبرى العامة من وراء هذا الغزو على اعتبار أنه غزو واحد.

أولا: القضاء على القوة الفاعلة لهذه الأمة المتمثلة في دينها وعقيدتها، وذلك بتكفيرهم لنا إن استطاعوا، وإدخالنا في نصرانيتهم المحرفة، وإقصاء شريعة الإسلام عن الحكم.

الفصل الرابع

قدرة الثقافة الإسلامية على مواجهة التحديات والصمود في الصراع

الثقافة الإسلامية القائمة على الدين الإسلامي قادرة على اقتحام التحديات التي تحول دون نهضة الأمة الإسلامية، كما أنها قادرة على الصمود في مواجهة الثقافة الغربية، إن الجبال الراسيات يمكن أن تزول وهذه الأمة لا يمكن أن تزول، لأنها محفوظة بهذا الدين، فقد تكفل الله بحفظ هذا الدين، ومن حفظه حفظ الأمة الآخذة به.

ويدل على قدرة هذه الأمة على الصمود والمواجهة ما يأتي:

أولاً: النصوص من الكتاب والسنة:

الأخبار الصادقة من الكتاب والسنة تدل على أن الإسلام سيبقى ظاهرا منصورا إلى أن تقوم الساعة، وأنه سيبقى قوة عالمية تزاحم القوى المضادة له مهما كانت متجبرة.

وقد عنون الشيخ ناصر الدين الألباني في مطلع الجزء الأول من سلسلة الأحاديث الصحيحة لمجموعة من الأحاديث بعنوان «المستقبل للإسلام» ثم قال: «قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزءٌ من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله:

١ - (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنتُ لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٣] أن ذلك تاما؛ قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله...) الحديث. رواه مسلم وغيره.

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره، بحيث لا يدع

مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه. وها أنا أسوق ما تيسر من الأحاديث عسى أن تكون سبباً لشدّ همم العاملين بالإسلام، وحجة على اليائسين المتواكلين.

٢ - (إن الله زوى (أي جمع وضم) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها). الحديث. رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وصححه وابن ماجه، وأحمد، من حديث ثوبان، وأحمد أيضاً من حديث شداد بن أوس إن كان محفوظاً.

٣- وأوضح منه وأعم الحديث: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر). رواه جماعة ذكرتهم في «تحذير الساجد» (ص١٢١). ورواه ابن حبان في «صحيحه» وأبو عروبة في «المنتقى في الطبقات» .

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم وماديّاتهم وسلاحهم حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان، وهذا ما يبشرنا به الحديث التالي.

٤ - (عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل أولاً يعني قسطنطينية). رواه أحمد، والدارمي، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن»، والحاكم، وعبد الغني المقدسي في «كتاب العلم»، وقال: «حديث حسن الإسناد» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

و(روميه) هي روما كما في «معجم البلدان» وهي عاصمة إيطاليا اليوم.

وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ولا شك أيضاً أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا مما يبشرنا به ﷺ في الحديث التالي:

٥ - (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء اللهأن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت).

رواه أحمد بسنده إلى حذيفة وقال الحافظ العراقي فيه: «هذا حديث صحيح»[1].

وهناك نصوص كثيرة غير النصوص التي ذكرها الشيخ ناصر، منها ما أخبرنا به الرسول ﷺ عن المهدي، وما عنده من قوة وجوش عظيمة ومنها أن المسلمين عند خروج الدجال يكونون قوة هائلة، وأن تلك الجيوش تكون محاصرة للقسطنطينية، وهذا هو الفتح الثاني لتلك المدينة، ومنها أن عيسى ابن مريم عليه السلام سينزل في آخر الزمان، وسيحكم بالإسلام، وسيدخل النصارى في الدين الإسلامي، فلا يقبل منهم إلا أن يدخلوا الإسلام أو القتل.

ومنها إخباره لنا بأعظم معركة تقع في التاريخ بيننا وبين أهل الصليب، ويكون النصر حليف المسلمين فيها، لكن بعد أن يسقط أكثر المسلمين شهداء.

ثانياً: خصائص الإسلام:

الإسلام وحده هو الدين الذي يملك الخصائص التي تؤهله للبقاء فهو الدين الإلهي الرباني الذي يصلح النفوس والقلوب والعقول والأعمال، وهو الصالح لأن يأخذ دوره في إصلاح العالم، وقد أدرك هذه الحقيقة بعض علماء الغرب، منهم «باول شتمز»، ومما قاله في كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية»: «سيعيد لتاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق، عوداً على بدء، من المنطقة التي قامت فيها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام،

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/٦-١٠ بشيء من التصرف والاختصار.

وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية وستثبت هذه القوة وجودها، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها، وستقلب موازين القوى، لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية.

وقد أدرك المفكر الإنجليزي «هيلير بيلوك» مدى فاعلية هذه القوة - معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها - حين كتب: «لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضا خطراً على أعدائها»[1].

إن الغرب سيفشل حتما في عولمة العالم، وسيبقى الإسلام هو القادر على عولمة العالم، فالثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية تصلحان لأن ينضوي البشر تحت لوائهما، لأنهما ثقافة الإسلام وحضارته، والإسلام هو الدين الإلهي المنزل للناس جميعا، وهو مبرأ من الهوى والانحراف ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]

وقد حكم الإسلام عالما واسعا على مدى ألف عام، ودخلت فيه شعوب مختلفة، وأجناس مختلفة، فَأْتَلَفَتْ تحت لوائه، وهو لا يزال صالحا ليقوم بالدور نفسه من جديد.

ثالثا: عودة المسلمين إلى دينهم:

لقد اغتاظ الغرب كما اغتاظ المستغربون من عودة المسلمين إلى الإسلام، فالإسلام بدأ يحيا من جديد في النفوس، وطلائع المد الإسلامي بدأت تطل هنا وهناك من الجامعات والمعاهد والمدارس، وبدأت الأصوات تتعالى منادية بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

وبدأ المثقفون في ديار الإسلام ينحازون إلى الإسلام، ويرفضون الكفر، وبدؤوا يدرسون حضارة الغرب وثقافته في ضوء تعاليم الإسلام، وبدأت تتكشف لهم عورات هذه الحضارة وتلك الثقافة، وفاض سيل من الكتب والصحف والمجلات يوضح الإسلام ويشرح أهدافه ومقاصده.

(١) الإسلام قوة الغد العالمية: ص٣٥٥ ترجمة د. محمد شامة. ونشره مكتبة وهبه. القاهرة.

وقامت المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية في كل أرجاء الدنيا، لتقدم الإسلام لكل الراغبين في دراسته، وأقبل على دراسته الأذكياء من الطلبة بعد أن كانوا عنه عازفين، وأخذ المفكرون والعلماء يوضحون مسار العودة إلى الإسلام، وبذل علماء الإسلام جهودا هائلة لرد الشبه والمفتريات والدعوات والمبادئ التي أغرقنا بها الغرب، فقد قام في العالم الإسلامي علماء أعلام كان لهم أثر باهر في الوقوف أمام السيل الجارف الذي جاءت به الحضارة الغربية، ودعوا إلى الاستمساك بالإسلام، وتوجيه الأمة إلى السبيل الأقوم مما كان له أكبر الأثر في رد أباطيل الكفر، وإقرار الحق.

وأخذت ضربات الغرب تشتد على المسلمين، بل أخذوا يمكرون بالإسلام وأهله، وأرسلوا جيوشهم لضرب المسلمين، وألصقوا بالمسلمين تهمة الإرهاب، واتخذوا من إلصاق هذه التهمة ذريعة لضربهم .

وكما نمى الإسلام أول مرة سينمو مرة أخرى، وسيكتمل بناؤه، على الرغم من كيد أعداء الإسلام وكيد أذنابهم في ديار المسلمين.

ويمكننا أن نجمل مظاهر الصحوة المباركة التي يعيشها المسلمون اليوم في النقاط التالية:

١ - توجه الشباب إلى المنهج الإسلامي والحماس للإسلام والدعوة إليه، وعمارتهم للمساجد، ومحاولتهم الالتزام بشعائر الإسلام وشعاراته.

٢ - عودة نسبة كبيرة من النساء إلى الالتزام بالإسلام فكراً وسلوكاً.

٣ - تردد أصداء الدعوة إلى الإسلام في مختلف ديار الإسلام.

٤ - الدعوة إلى إصدار تشريعات وقوانين مستوحاة من الشريعة الإسلامية أو مستمدة منها.

٥ - النشاطات والمجامع العلمية ومعاهد العلم التي تقام في كل مكان، كالمؤتمرات والتجمعات والمدارس والكليات الإسلامية التي نراها تنتشر في كل مكان .

رابعاً: أسلمة العلوم:

إن العلمانية أفسدت العلوم بما صبغتها به من كفر وضلال، وقطع الوشيجة بين

الخالق والمخلوق، ولذا فإن هذه العلوم تحتاج إلى إصلاح، وذلك بإعادتها إلى الفلك التي كانت تدور فيه، بحيث نرى من خلالها قدرة الله في الخلق والتكوين والتدبير والرعاية، وإعادة الوشيجة بينها وبين الدين، وتنقيتها من الفساد الذي وقع فيها، ويتحقق ذلك كله بإصلاح التعليم في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، بحيث نجعله تعليماً إسلامياً صافيا، ولا يكفي في هذا توجيه الشباب إلى الكتاب والسنة فحسب، بل يجب أن نجعل التعاليم والموازين والمقاييس الإسلامية ضابطا لتلك العلوم، ومحوراً للعلوم أيضاً، وهذا ما يطلق عليه بعض المفكرين المسلمين اسم «أسلمة العلوم».

وقد انعقد المؤتمر التأسيسي للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) في مايو ١٩٨٢، ووضع قضية أسلمة مناهج التعليم في طليعة أهداف المنظمة، ثم عقدت ندوة (دور المنظمة في خدمة الفكر الإسلامي) بفاس في يناير ١٩٨٣، وأدرجت مسألة أسلمة العلوم ضمن الأولويات التي ينبغي على المنظمة أن تسعى لتحقيقها، وبناء على هذا أدخل المؤتمر الإسلامي العام الأول لوزارات التربية والعلوم والثقافة الذي انعقد بالدار البيضاء في يونيه عام ١٩٨٣ برنامج (جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم) في خطة عمل المنظمة لسنتي (٨٣ - ٨٥).

وفي هذا المجال عقدت ندوة في مدينة الرباط في ٨ فبراير ١٩٨٤ باسم (ندوة جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم) وقد قال مدير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الأستاذ عبد الهادي أبو طالب في كلمته التي افتتح بها الندوة: «ليس الهدف من برنامج (جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم)، زيادة حصص مادة التربية الإسلامية، أو تعميمها في جميع مراحل التعليم، وإنما إعادة صياغة المنهج المدرسي كله على أسس إسلامية، وتأليف مفرداته وصوغ معطياته من منظور إسلامي، وصبغ التعليم كله بالصبغة الإسلامية، لخلق جيل متماسك الشخصية، محدد الهوية،واثق بنفسه، مؤمن برسالته.

ولا يتأتى هذا إلا إذا أعدنا النظر في جميع مناهج العلوم سواء منها الإنسانية أو المنطقية أو التطبيقية في المدارس والجامعات بحيث يقع التركيز فيها على المبادئ في مادية العلم ونفعيته، ويتم فيها الاطلاع على منجزات العلماء المسلمين وإسهامهم في شتى ميادين المعرفة ومختلف فروع العلم.

فليس من المعقول، ولا من الموضوعية، ولا من الأمانة العلمية في شيء أن نلقن أبناءنا مثلا نظريات كارل ماركس وآدم سميث في الاقتصاد دون أن نعرفهم بنظريات ابن خلدون والقاضي أبي يوسف فيه، أو أن نقدم لهم منجزات غاليلو ونيوتن في الفيزياء، ونغفل إبداعات ابن الهيثم والبيروني فيها، أو أن يتدارسوا أعمال ليبنز وباسكال في الرياضيات، ونهمل أعمال الخوارزمي وجابر بن حيان فيها، أو أن نعلمهم منهج ديكارت وسبينوزا ومنطقهما دون التطرق إلى منهج الرازي والأنصاري ومنطقهما، أو أن نشرح لهم آراء جان جاك روسو وجون ديوي في التربية وعلم النفس بلا إشارة إلى نظريات الغزالي وابن سحنون في هذه الميادين».

خامسا: انتشار الإسلام في عالم الغرب:

أصبح للإسلام وجود هائل في عالم الغرب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا وهولندا وغيرها من الدول، وهو في نمو مطرد، ويكسب الإسلام في كل يوم مسلمين جددا من أهل تلك الديار، بل دخل في الإسلام علماء مبرزون في تخصصاتهم، ومفكرون مشهورون لهم نَظَرَات وَنَظَرِيَّات في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، وعلى الرغم من كثرة المغريات التي يمكن أن تبعد المسلمين عن دينهم، إلا أن المسلمين في تلك الديار أقاموا كيانات تحفظ على المسلمين دينهم، ومن ذلك بناء المساجد، وإنشاء المدارس والجامعات، وإقامة المراكز الإسلامية التي تعنى بشؤون المسلمين في تلك الديار.

سادسا: قدرة المسلمين على تحصيل العلم واستعمار الأرض:

لقد امتلك المسلمون ناصية العلم فيما مضى، واستطاعوا أن يستعمروا الأرض، ويستخرجوا كنوزها، ويصنعوا ما يحتاج الناس إليه، وكتب التاريخ تحوي أخبار ذلك كله، والغربيون يعلمون من حال المسلمين الكثير، فقد كانت مؤلفات علم الطب والهندسة والزراعة والفلك والرياضيات والجبر التي كتبها علماؤنا هي التي تدرس في جامعاتهم عندما بدؤوا المسيرة العلمية التي أبلغتهم إلى ما وصلوا إليه اليوم.

ومن فعل ذلك مرة فإنه قادر على أن يفعله أخرى إذا ما هيِّئ له ذلك، ومع أن

٤٢

الغرب يحاول جاهدا أن يعوق نهضتنا العلمية إلا أن للمسلمين إسهامات واضحة هنا وهناك، فقد صنعت الباكستان القنبلة النووية، وهناك صناعات عسكرية وأخرى مدنية في كثير من الدول الإسلامية.

سابعا: الأفول الحضاري للغرب:

أراد الغرب من خلال علمائه ومفكريه ونظرياته وإعلامه أن يغرس في أذهاننا أنه لا تقدم للمسلمين ولا للأمة الإسلامية إلا باتباعنا له في مذاهبه وأفكاره وثقافته وحضارته، حتى زينوا لنا أن الحضارة وتعاليم الغرب وثقافته صنوان لا يفترقان.

وقد سبر غور هذه الدعوة مفكرو الإسلام وعلماؤه، وبينوا عوارها، فالتقدم المادي شيء والحضارة والمدينة شيء آخر، فقد ينال التقدمَ المادي أفسدُ أهل الأرض، وقد يكون اللص السارق المجرم متقدما ماديا، وعالما بطرق الإعمار والصناعة، ففرعون الذي هو من أضل أهل الأرض بنى حضارة مادية، لا تزال آثارها في الأهرامات وتحنيط الموتى تذهل الناس إلى هذه الأيام، ولكنْ فرعون مدعي الألوهية وقومه الضالين، ليسوا متحضرين.

لقد كان الاتحاد السوفيتي يدعي أنه متحضر، وأنه يملك العلاج الناجع لإصلاح أحوال البشر، ولكنه سقط سقوطا لا قيام له بعده.

وقد بدأت نذر سقوط الحضارة الغربية تلوح في الأفق، فالعيوب والآفات بدأت تسري في كيانها، وتحدث به صدوعاً وتشققات، وأصبحت عاجزة عن إخفاء آثار التآكل التي شدت إليها أنظار العقلاء من أبناء تلك الحضارة، فعلت أصواتهم معلنة أن نجمها بدأ يهوي، وأن الحضارة الغربية التي خيل للبعض خلودها آيلة للسقوط بعد أن أصبحت تنوء بمشكلات لا قبل لصناع تلك الحضارة بمعالجتها.

فهذا (الكسيس كاريل) في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» يدين الحضارة المادية، ويرى أنها وليدة خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم، وأن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد لم تجن منه البشرية سوى القلق والهموم وفي ذلك يقول: «حقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة، إن القلق والهموم التي

يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية».

ويتساءل عن جدوى الحضارة التي لا تجلب إلا الشقاء والتعاسة والانحطاط الخلقي فيقول: «ما جدوى الراحة والفخامة والجمال وأسباب تعقيد حضارتنا إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع؟ حقا إنه لمما لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقي، وتؤدي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة».

والمستر (دالاس) وزير خارجية أمريكا الأسبق أشار في كتابه «حرب أم سلام» إلى الخلل القائم في الحضارة الغربية قائلا: «إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج، وفي هذه الحالة النفسية».

وهو يرى أن المبالغة في وصف معطيات الحضارة الغربية يقابلها الإفلاس الروحي الذي يشكو منه أبناء تلك الحضارة فيقول: «ونستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه، وعن روائع الإنتاج الجماعي، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتلفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا، ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية».

ويرى أن الحضارة الغربية قد فقدت بريقها ولم يعد لديها ما تقوله للعالم الذي يبحث عن مخرج من عنق الزجاجة فيقول: «لن تكون هناك فائدة من إنشاء (أصوات أمريكا) أخرى عالية الصوت، إلا إذا كان لدينا شيء نقوله يكون أكثر إغراء مما قيل حتى الآن».

إذا كان (كاريل ودالاس) يعلنان عن خيبة البشرية في الحضارة الغربية فإن الفيلسوف الإنجليزي الشهير (برتراند رسل) يعلن عن اضطرار الحضارة الغربية إلى إخلاء موقع قيادة البشرية، ونهاية تسلط الرجل الأبيض - ممثل الحضارة الغربية - على مصير البشرية فيقول: «لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون» وليس الرجل الأبيض إلا رمزا للحضارة

الغربية التي بدأ أفول نجمها، ويتحدث «رسل» عن شقاء الإنسان في ظل الحضارة الغربية المادية فيقول: «إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في العالم الحديث، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة والسعادة»[١].

انتشار الجرائم في عالم الغرب:

انتشرت الجريمة في عالم الغرب انتشارا هائلا، أذهل الزعماء وقادة الفكر هناك. وأصبحت تلك المجتمعات مرتعاً للجرائم، كالزنا وشرب الخمر واللواط والإجهاض وأخذت هذه الجرائم تعمل عملها في تدمير كيان الفرد وكيان الجماعة، وتحول الأفراد في تلك المجتمعات إلى مخبولين وأنصاف مجانين.

نحن لا ندعي هذه الدعوى، بل زعماء الغرب وعلماؤه هم الذين يقولون ذلك، لقد صرح كندي رئيس الولايات الأمريكية في عام (١٩٦٢) أن مستقبل أمريكا في خطر، لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات، لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، وأنه بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الجسمية والنفسية.

وفي نفس العام صرح خروشوف - رئيس الدولة الكبرى الثانية روسيا - كما صرح كندي، فقد صرح بأن مستقبل روسيا في خطر، وأن شباب روسيا لا يؤتمن على مستقبلها، لأنه منحل مائع غارق في الشهوات.

وفي مطلع عام ١٩٨٢ قال (رونالد ريغان) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في خطاب موجه إلى الكونغرس بأن «الخوف من الاغتصاب والقتل قد خيم على معظم الأمريكيين... وكل عائلة من ثلاثة أصبحت ضحية للجريمة»[٢].

---

(١) انظر هذه الأقوال في كتاب: المسلمون والبديل الحضاري للدكتور طه العلواني: ص١-٤ نشر رابطة الشباب المسلم العربي، بأمريكا، ١٩٨٨.

(٢) جريدة الوطن الكويتية ٢٨/ ٨/ ٨٣.

وحسب إحصاءات مكتب التحقيق الفيدرالي فإن عدد الجرائم في الولايات المتحدة قد ازداد من (١١) مليونا في عام ١٩٧٥ إلى (١٣) مليونا في عام ١٩٨١ الأمر الذي دفع ريغان إلى القول في سبتمبر ١٩٨٢ « إنه لا يسعنا الاعتقاد بأن في مقدور المواطنين القيام بالنزهات المسائية في الحدائق بشكل هادئ وطبيعي »[١].

وقد زادت الجرائم خلال عام ١٩٨٢ في أمريكا حيث وردت الإحصاءات التالية:

تقع جريمة قتل في كل ٢٣ دقيقة، وجريمة اغتصاب بالعنف في كل ٦ دقائق، أما السرقات المسلحة ففي كل ٥٨ ثانية تقع سرقة[٢].

وفي إيطاليا استطاعت عصابات الإجرام أن تقطف رؤوس عِلْيَةِ القوم هناك، ففي عام ١٩٧٨ اختطفت الألوية الحمراء (الدومورو) رئيس وزراء إيطاليا، وقد ألقته جثة هامدة في سيارة في وسط المدينة بعد عدة أيام من اختطافه، ولم تستطع شرطة إيطاليا وجيشها أن يفعلوا شيئا.

إن الصحف التي تنقل لنا أخبار عالم الغرب تأتينا في كل يوم بسيل من أحداث الإجرام، ففي مطلع عام١٩٨٣م، وفي ليلة عيد الميلاد تمكن اللصوص من سرقة مجوهرات وأوراق نقدية قيمتها ٧,٩ مليون دولار من بنك الأندلس في بلدة (ماربيلا) في إسبانيا، وقد استعملت العصابة التي سرقت البنك مشاعل اللحام لفتح الباب الرئيسي الذي يؤدي إلى قبو المصرف بعد أن عطلوا نظام الإنذار وأمضوا يومين في فتح وتفريغ مائتي صندوق حديدي في القبو.

وفي ٨٣/١١/٢٦ قامت عصابة مسلحة في لندن بواحدة من أكبر عمليات السطو في تاريخ بريطانيا حيث استولت على ما تقدر قيمته بثلاثين مليون جنيه إسترليني من سبائك الذهب الخالص من إحدى شركات الودائع البريطانية بالقرب من مطار هيثرو في لندن، وتقدر زنة سبائك الذهب بنحو ثلاثة أطنان.

وقد صرحت الشرطة البريطانية في ذلك الوقت بأن ستة رجال مسلحين بالمدافع

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

قاموا صباح اليوم الذي تمت فيه السرقة بالإغارة على ذلك المستودع الذي تحفظ فيه السبائك، وقاموا بتقييد رجال الحرس الموجودين هناك وصبوا كميات من البترول عليهم وهددوهم بإشعال النار فيهم إذا ما قاوموا.

وفي ٨٣/١٢/١ اقتحم اللصوص مطار ماركو في البندقية، واستولوا على ١٧٠ كيلو جراما من الذهب المشغول والمجوهرات قيمتها (٤,١) مليون دولار.

ونقلت لنا الصحف أن الحشيش والمريجوانا والمخدرات تفتك بالشعوب الغربية فتكاً مخيفاً، ففي فرنسا وحدها يوجد مليون مواطن فرنسي يتعاطون الحشيش أو المريجوانا بإدمان، وأن نحو مائة ألف آخرين أعمارهم ما بين ١٤و٣٠ عاماً يدمنون على مخدرات أشد تأثيراً مثل الكوكايين وغيرها.

وقد أعلن البوليس الفرنسي أنه سينظر في عام ١٩٨٣ في (١١) ألف حادثة إدمان في مقابل (٦٢) حادثة فقط في عام ١٩٦٥، وذكر البوليس أنه ضبط في خلال عام ١٩٨٢ (٢٦) طنا من المريجوانا، و(٩٨) كيلو غراما من حشيشة الكيف.

أما البلايا التي تصيب مجتمعاتهم بسبب الإباحة الجنسية والشذوذ الجنسي فحديثها لا ينتهي، وبلاياها لا توصف، يدلك على هذا ما ذكره أحد الأطباء الغربيين المتخصصين وهو الدكتور (جولد) فإنه قرر أنه في كل ثانية يصاب أربعة أشخاص بالأمراض الجنسية في العالم، وبعملية حسابية سهلة نعلم أنه يصاب في كل يوم (٣٤٥٦٠٠) وفي كل عام (١٢٦,١٤٤,٠٠٠).

ويذكر الدكتور نبيل الطويل الذي نقل هذه الحقائق أن ثلاثة ملايين حالة جديدة من مرض السفلس الإفرنجي ظهرت في العالم، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها سجل في عام ١٩٦٤م مليون إصابة من مرض السيلان، وارتفع عدد الإصابات في عام (١٩٧٣) إلى مليونين ونصف مليون إصابة، وفي عام ١٩٨٠ بلغ عدد الحالات المسجلة رسمياً ثلاثة ملايين ونصف المليون، أما الأعداد التي لم تدخل تحت الإحصاء فأكثر من ذلك بكثير، ويذكر الدكتور نبيل في مقاله الذي نشره في مجلة الأمة القطرية في عددها الصادر في شوال (١٤٠٤هـ) أن حوادث السيلان ارتفعت عالمياً ٢٠٠ في المائة في

الرجال، و٥٠٠ في المائة في النساء، وارتفعت الإصابة في الفتيات المراهقات إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وينبه الدكتور نبيل في مقاله المدعم بالمراجع إلى أن اللواتي ينقلن المرض هن بنات المجتمعات التي تسمى محترمة، وأن عدد المومسات اللواتي ينقلن هذا المرض لا يتعدى خمسة في المائة فحسب.

ويذكر الدكتور نبيل أن عدد الأمراض الجنسية قبل أحد عشر عاما كانت خمسة أو ستة أمراض فقط، أما في وقت نشره المقال فقد بلغت ستة عشر مرضا، وتتفاوت تلك الأمراض شدة وخطورة وانتشاراً، وبسبب تنوع وشذوذ الصلات الجنسية ظهرت أعراض جديدة لم تكن مألوفة في عدة أنحاء من جسد الإنسان.

وقد ظهرت أمراض جديدة أشد خطورة وفتكا بعد كتابة الدكتور نبيل مقاله، فقد ظهر مرضان أذهلا العالم الغربي هما مرضا الهربس، والأيدز.

والهربس كما يقول الدكتور عبد الرحمن العوضي وزير الصحة في دولة الكويت مرض تناسلي يصيب الأعضاء التناسلية بآلام لا يعلم إلا الله مداها وقوتها وشدة قسوتها على المصاب، إن الأعضاء التناسلية حين تصاب بهذا المرض تصاب بمضاعفات خطيرة له، فانسداد تلك الأعضاء أمر وارد، وإصابة المرأة الحامل تعتبر من الإصابات الخطرة، لأن احتمال انتقال الهربس للمولود أمر يصبح وارداً أيضا.

ويذكر الباحثون أن هذا المرض صعب علاجه، بل يكاد أن يكون مستحيلاً، لأن مسببه فيروس، والفيروسات تعيش كجزء من مادة نواة خلايا الجسم، ولقتلها يتعين قتل خلايا الجسم.

وقد عقد مؤتمر دولي في أمريكا للأمراض الجلدية والتناسلية في عام ١٩٨٣ حضره ستة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم، ويقول الدكتور عبد الوهاب سليمان الفوزان عضو وفد الكويت إلى المؤتمر: «لقد أذهلتنا الأرقام التي سمعناها عن المصابين بمرض الهربس في الولايات المتحدة والذي تجاوز الثلاثين مليون مصاب».

وقد تلقت وزارة صحة الكويت في عام ٨٣ تقريراً من وزارة صحة أمريكا يفيد: أن تلك الوزارة تتوقع ظهور (٣٠٠) ألف حالة سنويا في أمريكا، وأن الهربس لا علاج له

حتى الآن، وأن المرض ينتقل عن طريق الفم والمعاشرة الجنسية، وأن ٩ - ٣٥ في المائة من الأمريكيين تعرضوا لفيروس الهربس بشكل أو بآخر، وأن النساء المصابات بالمرض يتعرضن للإجهاض أو الولادة المبكرة أو لانتقاله إلى الجنين وأن الأجنة المولودة مصابة، وتكون نسبة الوفيات فيها (٥٠) في المائة.

أمّا مرض (الإيدز) فهو أشدّ خطورة وفتكاً من مرض الهربس، لأنه يقضي على فريسته سريعاً ويهلكها، وقلما ينجو منه أحد، وهو مجهول المصدر، ولا يعرف العلماء أسباب الإصابة به وكيفية دخوله الجسم، وكل ما عرفه الطب الآن هو نوعية الأشخاص الذين يصابون به، وهم فئة الشاذين والشاذات وبنات الليل والمومسات، وهذا المرض يؤدي إلى فقدان المناعة في جسد الإنسان بسبب تكسر كريات الدم الحمراء، وقد نشرت مجلة (النيوزويك) الأمريكية في عام (١٩٨٣) تحقيقا عنه جاء فيه أن هذا المرض ظهر في عام ١٩٨١، ودعي مرض الشباب، وأصيب به (١٣٠٠) أمريكي، وقد توفي منهم (٤٨٩)، ولم ينج منه إلا (١٤) في المائة عاشوا ثلاث سنوات بعد اكتشاف المرض فيهم، ولم يشف أي واحد منهم بصورة نهائية.

تقويم حضارة الغرب عبر تاريخها:

كتب المفكر المسلم رجاء جارودي قبل إسلامه نقده العلمي للحضارة الغربية عبر تاريخها، ولخص الدكتور محمد محسن عبد الحميد هذا النقد، في النقاط التالية:

١ - استندت الحضارة الغربية على الإرادة الفردية الغازية المريدة للربح والسيطرة، والتي لا تتردد لحظة واحدة في تدمير القارات والحضارات، من خلال توجيه العلوم والتقنيات.

٢ - اعتمدت النظرة العلمانية الصرفة التي تؤكد أن العقل يحل كل المشاكل، وأن كل المشاكل الأخرى هي مشاكل لاهوتية زائفة.

٣ - لم تستطع هذه الحضارة إلى الآن أن تحدد غايات الإنسان الحقيقة، ولا أن تسيطر على الوسائل التي توصله إلى تلك الغايات.

٤ – هذه الحضارة تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك، وتحيل الفكر إلى ذكاء آلي، فيتجرد من الإيمان والحب والشعور الفني، ولذلك فإن هذه الحضارة في رأي غارودي مؤهلة للانتحار.

٥ – تقدم الغرب لم يكن نتيجة عظمة مبادئه، وإنما كان وليد نهب قارات ثلاث، ونقلها إلى أوروبة وأمريكا الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً..، ويثبت غارودي ذلك من خلال عرض تاريخي قائم على إحصاءات دقيقة.

٦ – إن هذه الحضارة أدخلت الرق طرازاً إنتاجياً لأول مرة في تاريخ إفريقيا[1].

٧ – أبادت هذه الحضارة الهنود الحمر في أمريكا، وأدخلت الأمراض الجنسية كالزهري لأول مرة بين الباقين.

٨ – ولما قضوا على الهنود الحمر احتاجوا إلى الأيدي العاملة، فبدأ خطف السكان الأصليين في إفريقيا طوال ثلاثة قرون، واسترقاقهم ودفنهم في العمل بالمناجم الأمريكية في مأساة إنسانية تاريخية كبرى قضى فيها تسعون مليوناً من المختطفين الإفريقيين نحبهم ووصل عشرة ملايين تحت ظروف قاسية إلى مواقع العمل في أمريكا.

٩ – يقول «غارودي»: «إننا لا نستطيع أن نقارنها بالمذابح التي أتاحت لـ(جنكيزخان) بناء أهرام من بضعة آلاف من الجماجم البشرية، إن عمله عمل صانع يدوي إذا قسناه بالجريمة التاريخية الأعظم التي اقترفها الغرب» ويقول: «إنني أذكر كيف شعرت فجأة بعار الإنسان الأبيض وكأنه حمل ثقيل مذل على كتفي، عندما زرت في جزيرة (كورة) مقابل «دكار» الحجيرات التي كان الأسرى يكدسون فيها قبل الإقلاع، ولا تزال آثار الدهان الأسود، مرسومة على الجدار، وهي تشير حتى الآن إلى المكان الذي كان النخاسون يحددونه لكل إنسان في ذاك الجحيم».

١٠ – يثبت «غارودي» أن الحضارة الغربية لم تلغ الرق لأسباب إنسانية وإنما لأسباب

---

(١) حوار الحضارات. ترجمة عادل العوا: ص٣٧-٩٣ الأولى ١٩٧٨. منشورات عويدات. بيروت لخصها د. محمد محسن عبد الحميد في كتابه المذهبية الإسلامية ص: ٤٥. كتاب الأمة. قطر.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري

الثقافة العربية والثقافات الأخرى

مع الترجمتين الإنجليزية والفرنسية

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ الطبعة الثانية : 1436 هـ/2015 م

من خلال القرائح التي تتمثّلها وتعبّر عنها، فالتفاعل مع الواقع تكييفاً أو تجاوزاً نحو المستقبل، من الوظائف الحيوية لها.

هـ) أنها إنجازٌ كمي مستمر تاريخياً، فهي بقدرما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتجدّد قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هويةَ الجديد روحاً ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساس، كما أنه بُعدٌ أساسٌ من أبعادها[2].

مصادر الثقافة العربية ومقوماتها وخصائصها :

وتتسم الثقافة العربية الإسلامية أساساً بسمتين اثنتين : سمة الثبوت فيما يتعلق بالمصادر القطعية، وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، وسمة التغيير فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعيُّ في الثقافة العربية الإسلامية يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهجاً للحياة. وتتجّلى هذه الخصائص في : العالمية، والشمول، والوَسَطِية، والواقعية، والموضوعية، والتنوّع في الوحدة[3].

---

(2) **الخطة الشاملة للثقافة العربية**، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، تونس 1996م، ص: 16.

(3) **الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي**، نشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو- الرباط 1997م.

ومصادر الثقافة العربية الإسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارهما المعين الأساس للعلوم الإسلامية واللغة العربية، والمرجعَ الذي يهتدي به المسلم في بحثه عن الحقائق في مجالات المعرفة والوجود والقيم، وفي ما يتعلق بالفكر والواقع والنظر والسلوك.

والقرآن الكريم يُعدُّ المصدر الأساس للثقافة العربية الإسلامية بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحاً لكل زمان ومكان، ومسايراً لمتطلبات كل عصر ومستجداته.

وتشكّل السنة النبوية المصدر الثاني الأساس للثقافة العربية الإسلامية. وكما اعتمد المسلمون في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، اعتمدوا كذلك على سنة نبيّهم بعد أن جمعوها ودوّنوها وفصّلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية. وبذلك تكون الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة أساساً من القرآن والسنة، ثقافةً متفتحةً، داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم[4].

ويُستنتج من هذا كلّه أن الثقافة العربية الإسلامية تختلف عن الثقافات الأخرى في أن مقوّمات كل منها تختلف عن الأخرى؛ فالثقافة العربية الإسلامية إسلامية المصدر، تستمدّ كيانها من القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية، واجتهادات العلماء، بينما نجد الثقافة الغربية على وجه الإجمال، تستمدّ مصادرها

(4) المصدر نفسه، ص: 52-53.

٥٠

من الفكر اليوناني، والقانون الروماني، واللغة اللاتينية، وتفسيرات المسيحية التي وصلتها[5].

ولقد وَازَنَت الثقافة العربية الإسلامية بين جوانب العقل، وجوانب الوجدان، ورفضت إعلاء المعتزلة للعقل، وإعلاء الصوفية للوجدان، وحافظت على المفهوم المتكامل الجامع. كذلك فقد حرصت الثقافة العربية الإسلامية على ارتباطها بالمصدر الأول من القرآن والسنة على مدى مراحلها[6]. ولم يقع الانفصام بين الجانبين في الثقافة العربية والإسلامية، إلاّ في هذا العصر، وهذا الانفصام هو أحد عوامل ضعفها اليوم.

والثقافة العربية الإسلامية عربيةٌ في لغتها، إسلاميةٌ في جذورها، إنسانيةٌ في أهدافها، وهي، شأن كل ثقافة، تتكوَّن من مقومات أساس : فكرية وروحية، أهمُّها العقيدة، وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث ووحدة العقلية والمزاج النفسي. وقد تأكّد أنه لا يمكن لأية ثقافة من الثقافات أن تنمو، إلاَّ إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان، فالدينُ هو الذي يُكسب الحياةَ الاجتماعية معناها، ويمدّها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها[7].

واللغة العربية مقوِّمٌ أساسٌ من مقوّمات الثقافة العربية الإسلامية، ذلك أن العربية ليست لغةً وأداةً فحسب، ولكنها لغة فكر أساساً. وحتى الشعوب والأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام،

---

(5) مَعْلَمَة الإسلام، ص: 525.

(6) المصدر نفسه، ص: 530.

(7) المصدر نفسه، ص: 532.

وإن كانت احتفظت بلغاتها الوطنية، فإنها اتخذت من اللغة العربية وسيلةً للارتقاء الثقافي والفكري، وأدخلت الحروف العربية إلى لغاتها فصارت تكتب بها.

ومن أقوى مقوِّمات الثقافة العربية الإسلامية الإيمان بالأمة، والثقة فيها. وهذا الإيمان لابد أن يستمدّ قوته من الإيمان باللّه، لأن الإيمان باللّه هو الأصل، وهو الينبوع الذي ينبغي أن تُبنى عليه العقيدة، ومن أوجه هذه العقيدة أن يؤمن الإنسان بأمته، وأن يؤمن العربيّ والمسلم بأن أمته خير أمة أخرجت للناس. والإيمان في الإسلام، كما في الأديان السماوية ـ التي جاء بها الرسل ـ قد دعا إلى المحبة والإخاء، وهو في الإسلام بصفة خاصة، يعلّم المساواة بين الناس، والعطاء قبل الأخذ. ولذلك فإن التربية الدينية يجب أن تكون أساساً للثقافة العربية الإسلامية[8].

والثقافة العربية الإسلامية ليست مجردة، فنحن لا نكتفي فيها بالبحث عن أصول الأشياء ولا عن حقائقها وحدها، ولا نبحث فيها بحثاً مجرّداً، لأن الثقافة جزء من الإنسان، فإذا كان العقل يغذّيها، فإنها لا تنبع من العقل وحده، وإنما تنبع في النفس البشرية، وتنبع في الأحاسيس وتنبع في الذوق، وتنبع أكثر من ذلك في الوجدان. بل هي أيضاً تتصل بالجانب الأساس الذي ميَّز اللّه به الإنسان عن الحيوان، ألا وهو الضمير. إن الثقافة تتصل بالضمير، والضميرُ أعمق وأروع من العقل[9].

---

(8) د. سليمان حزيِّن، **أرض العروبة. رؤية حضارية في المكان والزمان**. الفصل العاشر عن مقومات الثقافة العربية ودورها في حياتنا القديمة والمعاصرة، ص: 255، دار الشروق، الطبعة الأولى 1993م.

(9) المصدر نفسه، ص: 256.

٥٧

والضمير الإسلامي هو منبع الثقافة العربية الإسلامية. ولذلك فهي ثقافة الوجدان الإنساني.

والثقافة العربية، هي ثقافة الأمة العربية، التي هي أمة الإسلام الذي منه اكتسبت صبغتَها، وحملت صفتَها، واستمدّت طبيعتها. فلم يكن لهذه الأمة كيانٌ قائم الذّات قبل الإسلام، وإنما كانت قبائل وعشائر لا تجمعها عقيدة، ولا يوحّدها إيمان برسالة سماوية. حتى إذا بعث اللّه رسوله محمّداً ﷺ بالإسلام، كان هذا الدينُ هو الرسالةَ الخالدة للعرب.

ولئن كانت الثقافة العربية إسلاميةَ الروح سماويةَ الرسالة، فإنها مع ذلك ثقافة استوعبت كلَّ الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الأمة العربية الإسلامية، ووَسِعَتِ كلَّ الثقافات التي تعايشت معها، فصارت بذلك ثقافةَ العرب المسلمين، وثقافةَ العرب النصارى واليهود، وثقافةَ كل أهل الأديان وطوائف الملل والنحل التي اندمجت في الكيان العربي الإسلامي، وعاشت في ظلّ الدولة العربية الإسلامية عبر الأزمنة والعصور.

إن انتشار الثقافة العربية الإسلامية في مختلف البلاد التي دخلها الإسلام، جعل كثيراً من معالم الثقافات المحلية القائمة تتكيَّف مع مقوّمات الثقافة العربية الإسلامية؛ فأصبحت الطقوس والتقاليد والأعراف تنسجم في غالب الأحيان، مع ثوابت الثقافة العربية الإسلامية، حتى ولو اختلفت فيما بينها في الممارسة والتطبيق، على أن هذا الاختلاف لا يصل إلى مجال العقائد

٥٢

والقيم والمقاصد، كما هو الشأن مع الثقافات غير الإسلامية القديمة والحديثة[10].

وبذلك تكون أهمّ خاصية تتميّز بها الثقافة العربية، أنها امتزجت بالثقافات الأخرى التي كانت سائدةً في عهود الإسلام الأولى، وتفتَّحت لعطاء الأجناس والأقوام وأهل الديانات والعقائد التي تعايشت مع المجتمع العربي الإسلامي، فصارت بذلك ثقافةً غنيةَ المحتوى، متعدَّدة الروافد، متنوعةَ المصادر، ولكنها ذات روح واحدة، وهويّة متميّزة متفرّدة.

كذلك فإن من أهمّ خصائص الثقافة العربية الإسلامية الانفتاحَ علي الثقافات الشرقية والغربية، مع المحافظة على الأصول الثابتة من دون تجاوزها. وقد واجهت الثقافة العربية الإسلامية عديداً من التحديات في تاريخها الطويل، وهي تحديات المذاهب الفلسفية والأديان والدعوات المختلفة التي كان يزخر بها العالم إبّان بعث الإسلام، من بوذيّة، ومجوسية، ووثنية، وهِّلينية، وهندية، وفارسية، وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازية، وحاولت جميعُها إثارة الشبهات وتحريف القيم الأساس، والإضرار بالأمة والدولة العربية الإسلامية والفكر جميعاً[11]. ولكن الثقافة العربية الإسلامية انتصرت على هذه التحديات في الماضي بفضل مقوّماتها الصلبة وخصائصها المتفرّدة.

---

(10) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، ص: 56.

(11) مَعْلَمَة الإسلام، ص: 534.

٥٤

ولقد أكْسَبَ هذا الامتزاجُ والتلاقحُ الثقافةَ العربيةَ الإسلامية ثراءاً وغِنَى وقوَّة ومناعة، وهي خاصيةٌ فريدة وميزةٌ تكاد أن تكون فريدة في التاريخ الثقافي الإنساني. ويأتي مصدرُ هذا التنوّع الذي يطبع الثقافة العربية الإسلامية من طبيعة المبادئ التي تقوم عليها والمستمدَّة أساسا من جوهر الرسالة الإسلامية التي من خصائصها الترغيبُ في طلب العلم، والحثُّ على النظر والتفكير، والحضُّ على التماس الحكمة من أي وعاء أو مصدر كانت، والدعوةُ إلى التعارف بين الأمم والشعوب بما يقتضيه ذلك من تقارب بكل معانيه، إلى جانب النهي عن الإكراه في الدين، وهو المبدأ القرآني الذي يمكن أن يكون قاعدةً للتعايش الثقافي والفكري في إطار وحدة الأصل الإنساني، وهو المبدأ الأصيل الذي يختزل كلّ معاني حرية الفكر التي هي نقيض فوضى الفكر المؤدّية، وبصورةٍ تلقائية، إلى بؤس الفكر المُفضي بدوره إلى بؤس الثقافة.

تفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الأخرى :

لقد تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الأمم والشعوب التي عرفت الإسلام، والتي اتّصل بها المسلمون أو انضوت تحت لوائه. وكان هذا التفاعُل الثقافيُّ المَرِن والمتفتّح، أهمَّ عنصرٍ من عناصر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ودافعاً نحو الانفتاح على الثقافات وهضمها واستيعابها وتكييفها مع روح الثقافة العربية الإسلامية، كما كان هذا العنصر حافزاً إلى فهم طبائع الأمم والشعوب والغوص في أغوارها والتماس الحكمة من

66

حضاراتها، تحقيقاً لمبدأ التعارف القرآني، وتأكيداً لرسوخ الهوية الثقافية الحضارية العربية الإسلامية.

ولقد كان تفاعلُ الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى، وسيلةً لتحرير الشعوب والأمم من الخرافات والوثنيّات والعصبيّات والمظالم، وطريقاً إلى إيقاظ الوعي والوجدان وتحرير العقل والنفس، حتى استقامت هذه الثقافات على كلمة اللّه الحق بالتوحيد، واستمدت من القرآن الكريم قيمها الأساس : عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاقاً، ونظامَ مجتمع، ومنهجَ حياةٍ جامعةٍ بين العقل والقلب، والروح والجسد، والدين والعلم، والدنيا والآخرة[12].

وقد نتج عن تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الأمم والشعوب الأخرى، أن صارت هذه الثقافةُ متعدِّدة المشارب متنوَّعة الفروع. وكان ذلك مصدراً آخر من مصادر قوة التفاعل في الثقافة العربية الإسلامية. وكان التفاعل الثقافي في حقيقة الأمر، خاصية الحضارة الإسلامية، إذ لم يعرف التاريخ الإنسانيُّ في مختلف عصوره، أن ثقافة منتصرة وغالبة قبلت التفاعلَ مع الثقافات المنهزمة، وأقبلت على التواصل مع الحضارات المنهارة، وأبقت على مصادرها وآثارها، وتسامحت مع الأديان والعقائد التي نبعت منها.

ولقد فتح تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى، الأبواب أمامها للاغتراف من منابع هذه الثقافات التي

---

(12) المصدر نفسه، ص: 528،

٥٦

كانت مراكزها في الشام ومصر وفارس، ومنبعها الأصلي في بلاد اليونان. وكانت هذه البيئة تربة خصبة تستطيع إذا بذرت فيها البذور الصالحة أن تنبت صفوة من الرجال والباحثين، ومدارس ثقافية وفكرية تغذّي العقل وتغني الوجدان. ثم جاء الإسلام فأمدَّ هذه التربة الخصبة ببذور صالحة، وغذّتها روح الإسلام بينبوع لا ينضب من الفكر والمعرفة، فظهر في ذلك الجوّ المزدهر مجموعات من العلماء والفلاسفة الممتازين الذين لا يُعدّون بالعشرات بل بالمئات. وهذه المدارس لما تفاعلت معها الثقافة العربية الإسلامية، قدّمت التربة التي استطاع المسلمون أن ينبتوا فيها ثقافة جديدة، وفلسفة، وعلوماً دينية، وطِبًّا ورياضة وغيرها، وأن يحملوا منها علوماً مزدهرة عميقة الجذور[13].

ولقد كانت قدرة الثقافة العربية الإسلامية على هذا الضرب من التفاعل عاملاً مساعداً على انتشارها وامتداد فروعها وتعميق جذورها في بيئات مختلفة ومجتمعات متعدّدة. واتخذ هذا التفاعل أشكالاً وصوراً شتى تبلورت جميعُها في أنماط من السلوك، ومدارس من التفكير، وأساليب من التعبير، هي المظهر العام للثقافة العربية الإسلامية، وهي النتيجة الطبيعية لتفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى، على هذا النحو من المرونة والتسامح والانفتاح مع التشبث بالأصول والجذور، وفي إطار الهوية الحضارية الثقافية المميّزة.

(13) د. أحمد شلبي، **موسوعة النظم والحضارة الإسلامية**، الجزء الأول، ص: 37-38، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة 1971م.

تأثير الثقافة العربية في النهضة الأوروبية :

في بحثه عن أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي، يقول الكاتب ت. كولريونج (T. C. young) « إن الدَّين الثقافيَّ العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين، داخل هذه الألف سنة، نُسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، يجب التذكيرُ به دائماً. وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام، حتى استطاعت أوروبا مرةً أ خرى، أن تتفهمه وترعاه. كل هذا يجب أن يمازج الروحَ التي نتجه بها ـ نحن المسيحيين ـ نحو الإسلام، نحمل إليه هدايانا الثقافية الروحية، فلنذهب إليه ـ إذن ـ في شعورٍ بالمساواة نؤدّى إليه الدَّين القديم. ولن نتجاوز حدود العدالة إذًا نحن أدّينا ما علينا بربحه. ولكننا سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حبّ واعتراف بالجميل»[14].

لقد قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها الطليعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الأغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدّم عليهم في التاريخ، نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة. وأثر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية،

---

(14) في بحث مطول بعنوان: THE CULTURAL CONTRIBUTION OF ISLAMI TO CHRISTENDOM، نقلاً عن كتاب «**أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**»، ص: 5، نشر الشعبة القومية المصرية للتربية والعلوم والثقافة، القاهرة 1987م.

وكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالباً وواضحاً ومؤثّراً في عديد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل «داروين» بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل «هارفي» بأربعة قرون، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل نيوتن بقرون متطاولة، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الأجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالي البحار، ووضع أسس علم الكيمياء.

ويمكن القول إجمالاً، إن الثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية ؛ فالفكر العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متّصلة الحلقات، امتدّت من الحضارات القديمة، من مصرية، وآشورية، وبابلية، وصينية، إلى حضارة الأغريق والاسكندرية، إلى العصر الإسلامي الذي تأثّر علماؤه بمن تقدّمهم، وأثّروا بدورهم فيمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين قرأوا أعمال العلماء العرب في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية[15].

لقد حافظت الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية من الضياع، إذ لولا المثقفون والعلماء العرب، لما وصلت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية. ولقد ظلّ الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد أن

(15) المصدر نفسه، ص: 231.

تقلّص ظلّها في الأندلس بجيلين أو أكثر، حتى وصل إلى العصور الحديثة. وظلت الثقافة العربية الإسلامية تستهوي الكثيرين من أبناء العالم الغربي، إذ لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، عندما بدأت الكتب اليونانية تُنقل رأساً إلى اللاتينية من دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتُها وشخصيتها، فقد أنتجت الكثير مما لم تستطع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كافّة : إضافات وتعليقات وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان[16].

إن حركة النقل من الثقافة العربية الإسلامية التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على «نقل» المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية، من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب. إن أوروبا المسيحية قد «نقلت» أيضاً معارف عربية خالصة، كما نقلت أنماطاً من الحضارة الإسلامية ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصّة. ولو أن الكنيسة الكاثوليكية لم تضع ثقلها إلى جانب الفِرنجة في معركة تُورَ سنة 114هـ (732م)، لعمَّت الحضارةُ الإسلامية والثقافةُ العربية الإسلامية في أوروبا منذ ذلك الزمن الباكر، ولوفَّرت الكنيسة الكاثوليكية على العالم نِزاعاً طويلاً وشقاء مريراً[17].

(16) د. سيمون الحايك، **تعرَّبت .. وتغرَّبت : أو نقل الحضارة العربية إلى الغرب**، ص: 13-14-15، المطبعة البولسية، بيروت، 1987م.

(17) د. عمر فرُوخ، **الثقافة الإسلامية**، ص: 105، المكتبة العصريه، صيدا، بيروت، 1987م.

٦٠

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في العالم الغربي، ونهل علماء أوروبا من المصادر العربية الأصلية، ووجدوا أنها تراثٌ علميٌّ عظيمٌ، فاشتغلوا بدراسته وتحليله. ولقد كان العرب والمسلمون يمثّلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة، كانوا رواداً في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المثقفون والعلماء في أوروبا من الثقافة العربية الإسلامية، أكثر من مجرد المعلومات، إنهم اكتسبوا العقلية العلمية ذاتَها بكل طابعها التجريبي والاستقرائي، بحيث وجد الأوروبيون في التراث العربي الإسلامي وفي الثقافة العربية الإسلامية ضالتهم المنشودة، فعكفوا على نشره[18].

إن الانبهار بحجم تأثير الثقافة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، وفي الثقافة والعلوم الأوربيّيْن، جعل مفكرةً عالمةً ألمانيةً تصدع بهذه الحقيقة بقولها : «إن تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا عدّة قرون، تجعلنا نعجب أشدّ العجب؛ إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارية محليةٍ على قدر من الأهمية، أو أخذاً لنمط حضاري موجود، أو تقليداً يُنسج على منواله المعهود، كما نعرف في الأقطار الأخرى مهد الحضارات في الشرق. إن العرب بثقافتهم هم الذين أبدعوا هذه الروعة الحضارية إبداعاً»[19].

وبينما كانت أوروبا ترتع في غياهب العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية (التي هي محضن الثقافة العربية الإسلامية)

(18) د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **الحضارة الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين**، ص: 53، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

(19) زيجريد هونكه، **اللّه ليس كذلك**، ص : 54، دار الشروق، القاهرة، 1995م.

في أوج ازدهارها. لقد أسهم الإسلام كثيراً في تقدّم العلم والطب والفلسفة. وقال (ويل ديورانت Will Durant) في كتابه «**عصر الإيمان**»(The Age of Faith) : «إن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة في كل المجالات، وكان ابن سينا من أكبر العلماء في الطب، والرازي أعظم الأطباء، والبيروني أعظم الجغرافيين، وابن الهيثم أكبر علماء البصريات، وابن جبير أشهر الكيميائيين». وكان العرب رواداً في التربية والتعليم. وقال ديورانت في هذا الشأن أيضاً : «عندما تقدّم (روجر بيكو Reger Bacon) بنظريته في أوروبا بعد 500 عام من ابن جبير، قال إنه مَدينٌ بعلمه إلى المغاربة في إسبانيا الذين أخذوا علمهم من المسلمين في الشرق. وعندما ظهر النوابغ والعلماء في عصر النهضة الأوروبية، فإن نبوغهم وتقدّمهم كانا راجعين إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي»[20].

مصادر قوة الثقافة العربية :

في إطار هذا المنظور الرحب الواسع، يمكن أن نقول، إن الثقافة العربية الإسلامية، ثقافةُ القوة والبأس، لا ثقافة الضعف

---

(20) ريتشارد نيكسون (الرئيس الأمريكي الأسبق)، «**الفرصة السانحة** - SEIZE THE **MOMENT**» ص : 138 الطبعة العربية، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القامرة بلا تاريخ. وكتاب «**عصر الإيمان**» هو الجزء 2 من المجلد الرابع في الأصل الإنجليزي، ترجمة محمد بدران، (المجلدان : 13-14 من الترجمة العربية) من موسوعة (**قصة الحضارة**) للكتاب الأمريكي ويل ديورانت. من الطبعة العربية التي تقع في 42 جزءاً (21 مجلداً)، التي أصدرتها الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اليوم). وتتضمن هذه الموسوعة التي ترجمت إلى عدة لغات، شهادات منصفة عن تأثير الثقافة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية.

والبؤس. والقوةُ تؤدّي إلى النظام والانسجام والتناغم، في حين أن الضعف يتسبّب في الفوضى والصراع والتصادم. ومن ثمّة كانت الثقافة العربية الإسلامية، ثقافةَ الحوار والتفاهم والتواصل، ولم تكن قط لتنأى عن التلاقح والتمازج والتداخل. في حين كانت جميع الثقافات التي تنتسب إلى الأمم والشعوب القديمة، تنزع نحو الانعزال والانغلاق، وتصطبغ بصبغة العرقية والعنصرية، ولم تكن على الإجمال، ثقافةً متفتّحة، قابلةً للأخذ والعطاء.

إن الثقافة قوّة فاعلة من قوى البناء الحضاري في مدلوله الشامل، الفلسفي والأدبي، السياسي والاجتماعي، الاقتصادي والتنموي. والثقافة طاقةٌ للإبداع في شتّى حقول النشاط الإنساني، ثم إن الثقافة البانية الهادفة الفاعلة، لابد وأن تكون في خدمة السياسات التي تتجه نحو ترقية وجدان الإنسان، وتهذيب روحه، وصقل مواهبه، وتوظيف طاقاته وملكاته في البناء والتعمير، والتي تعمل من أجل تحقيق الرقيّ والتقدّم والرخاء والازدهار[21].

ولا يتأتّى للثقافة أن تمتلك القوة والمناعة، وتنهض بهذه المسؤولية على الوجه المرغوب فيه، إلاّ إذا توفّرت لها ثلاثة شروط تعدُّ من مصادر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ومن أسس النهضة الثقافية، ومن العناصر الأساس لبنية الثقافة العربية الإسلامية :

(21) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، **في البناء الحضاري للعالم الإسلامي**، ج : 2 ص : 265، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - الرباط 1997م

أولاً : أن تكون الثقافة ذات مرتكزات تستند إليها ومبادئ تقوم عليها، فلا تكون ثقافة منبتّة الجذور، لا هوية لها تُعرف بها، ولا خصائص لديها تميّزها.

ثانياً : أن تكون الثقافة ذات أفق مفتوح ورؤية شاملة، لها قابليةٌ للتفاعل مع الثقافات الأخرى، ولها استعدادٌ كامنٌ في أصولها للتعامل مع الثقافات الإنسانية من هذه المنطلقات.

ثالثاً : أن تكـــون الثقافة ذات منحى إنساني تتخطَّى به المجال المحلّي أو الإقليمي، إلى الآفاق العالمية، من دون أن ينال ذلك من خصوصيتها، أو يؤثّر في طبيعتها، فتكون بذلك ثقافة تَوَاصُل بشري، وتَحاوُرٍ إنساني، وثقافة تفاهم يؤدّي إلى التعايش بين الأمم، وثقافة تعاونٍ يحقق التضامن بين الشعوب[22].

بتوافر هذه الشروط، لا تكتسب الثقافة العربية الإسلامية القوةَ والمناعة فحسب، ولكنها تكتسب إلى ذلك، القدرةَ على السموّ والرقيّ، لأن الثقافة القوية القادرة على البناء، هي تلك الثقافة التي تسمو بالإنسان إلى المقام الأرفع والمكانة الأسمى. وكما يقول الرئيس علي عزّت بيجوفيتش، فإن حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة، القوةُ الذاتية، أما الحضارة فهي قوةٌ على الطبيعة عن طريق العلم. إن الثقافة تميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحدّ من درجة إشباعها،

(22) المصدر نفسه، ص : 266.

٢٤

وبهذه الطريقة تُوسّع في آفاق الحرية الداخلية للإنسان[23]. وتلك هي القوة الروحية والنفسية والعقلية التي تمكّن الإنسانَ أن يمارس وظائفه في الحياة على النحو الذي يرضي خالقه أولاً، ثم يرضي نفسه بعد ذلك.

إن إبراز هذه السمات والخصائص التي تنفرد بها الثقافة العربية الإسلامية، أمرٌ نراه ضرورياً في سياق الحديث عن الثقافة العربية والثقافات الأخرى، سواء أكان القصدُ من هذا الموضوع هو المقارنةَ التي تعنى بيان أوجه الأشباه والنظائر، وكشف نواحي الالتقاء والافتراق، أم رسمَ حدود العلاقة التي يفترض أن تقوم بين الثقافة العربية الإسلامية، وبين الثقافات الأخرى.

وفي كلتا الحالتين، فإن المنطلقات الأساس في البحث عن مصادر قوّة الثقافة العربية الإسلامية، وعن خصائصها، ووظائفها، ورسالتها وأهدافها، ومظاهرها، تستند إلى ثلاثة أسس :

الأساس الأول : إن الثقافة العربية الإسلامية في مبادئها وأصولها، وفي مفاهيمها ودلالاتها، تعبّر عن جوهر رسالة الإسلام السمحة، فهي بذلك ثقافةٌ إنسانية بالمعنى العميق، تنفتح على ثقافات الأمم والشعوب، فتتلاقح وتتمازج وتتصاهر معها، وإن مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها يكمن في هذه الخاصية التي لا يعرف التاريخُ الثقافيُّ البشري نظيراً لها.

---

(23) علي عزت بيجوفيتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ص: 96، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، 1994م.

ولقد حدّد المفكّر مالك بن نبي أربع دعائم تقوم عليها الثقافة العربية الإسلامية، هي :

أ) الدستور الأخلاقي.

ب) الذوق الجمالي.

ج) المنطق العملي.

د) الصناعة أو (التقنية)[24].

والثقافة التي يعرّفها الغربيّون بصورة عامة بأنها (فلسفة الإنسان)، يحدّها مالك بن نبي بالقول إنها «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أوّلي في الوسط الذي ولد فيه». أي أنها المحيط الذي يشكلّ فيه الفردُ طباعه وشخصيته. وعلى هذا الأساس تكون الثقافة (نظرية في السلوك) أكثر من أن تكون (نظرية في المعرفة). وفي هذا التحديد يكمن الفرق بين الثقافة والعلم، فالثقافة سلوك، أما العلم فمعرفة. والثقافة بهذا المعنى وثيقة الصّلة بالتاريخ وبالتربية، فليس ثمّة تاريخ لأمة بلا ثقافة، والشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتماً تاريخه، إذ هي الوسط الذي تتكوّن فيه خصائص المجتمع التاريخية من عبقرية وتقاليد وأذواق ومشاعر. والثقافة من ناحية ثانية، تتحدّر بمضمونها التربوي من حيث إنها «دستور

(24) مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ص: 117، نقلًا عن «**أسس التقدم عند مفكّري الإسلام في العالم العربي الحديث**»، للدكتور فهمي جدعان، الطبعة الثانية 1981م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص: 417-418.

تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوّع الاجتماعي»[25].

وتنطوي هذه الخاصّية المتفرّدة على عناصر القوّة في الثقافة العربية الإسلامية، وعلى مصادر الحيوية والتدفّق فيها، وعلى ما يمكن أن نعبّر عنه بالقدرات الذاتية التي تجعل منها ثقافةً قويةً متغلغلةً في البيئة والوسط، فاعلةً ومؤثّرة في الفرد والمجتمع.

الأساس الثاني : إن الثقافة العربية الإسلامية، في عمقها وجوهرها، ثقافةُ تَدَافُع، لا ثقافةُ تَصَارُع، فالتدافع هو سنّةُ الحياة، أما التصارع، أو الصراع، فهو مفهومٌ يعود إلى التراث الإغريقي والروماني والهلّيني الذي عرف أساطير صراع الآلهة، ولا يعبّر عن الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية. وهذا أيضاً منبع من منابع القوة والحيوية والقدرة على الحضور في ساحة التنافس الثقافي، لأن التدافع الثقافي مصدرُ قوّة، في حين أن التصارع، أو الصراع الثقافي، يؤدّي إلى إضعاف الذات، والنيل من القدرات والملكات، ويسير في اتجاه معاكس للغايات الإنسانية النبيلة.

وليس عزوف الثقافة العربية الإسلامية عن الصراع، ضعفاً في تركيبتها أو خللاً في عناصرها الأساس، ولكنه عنصرُ تحضّر فيها، وعلامة نضج ووعيٍ، ومظهرُ صحة. ومن المؤكد أن خاصية النزوع نحو التدافع بدلاً عن التصارع، هي التي مكّنت الثقافة العربية الإسلامية من الصمود أمام الأعاصير الثقافية والفكرية والمذهبية التي واجهتها عبر العصور.

---

(25) المصدر نفسه، ص. 120

الأساس الثالث : إن كثيراً من جوانب الثقافة العربية الإسلامية، في أوضاعها ومستوياتها الحالية، مع شديد الأسف والأسى، لا تعبّر عن هُوية المجتمع العربي الإسلامي، لأنها جوانب يعتريها الضعف من كل النواحي، ولأن هناك تفاوتاً ظاهراً بين المنابع وبين البدائع، ونقصد بذلك أن أساس هذه الجوانب ليس مستمداً في مجمله من المنابع الأصلية، وأن هذه الظاهرة هي مصدرُ الضعف العام في الثقافة العربية الإسلامية في المرحلة التاريخية الراهنة.

إن الثقافة العربية الإسلامية هي ثقافة اجتهاد وإبداع مستمرين في إطار الضوابط الشرعية والقيم الخلقية التي تُميّز حضارةَ الإسلام، وتعبّر عن هوية الأمة. لذلك فإن عطاء هذه الثقافة، عطاءٌ متجدّد بتجدّد الأحوال واختلاف القضايا والأفعال.

ولا ينبغي أن نخدع أنفسنا فنحسب أن الثقافة هي إبداعٌ وابتكارٌ في المقام الأول، وأن قوّة الإبداع تنبع من عقل الإنسان المثقف المبدع ومن خياله ووجدانه، وأن لا صلة لذلك كلّه بالقيم والمقوّمات. إن هذا وَهْمٌ من جملة الأوهام التي تسود حياتنا العقلية وأجواءنا الثقافية. إن الثقافة العربية الإسلامية لن تقوى على مواجهة الأخطار التي تتهدّدها والتحدّيات التي تواجهها، إلاّ إذا استمدت قوّتها من جذورها وأصولها، ومن قيم الأمة ومقوّماتها. وليس في ذلك أي نوع من الحجر على الإبداع، أو القيد على التفكير والتعبير.

طبيعة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى :

إن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الهيمنة الثقافية التي هي جزءٌ من الهيمنة الاقتصادية والسيطرة على رأس المال والأسواق، وعلى بنية مصادر التمويل الدولية. وفي هذا الجوّ تتعاظم أهمية العلاقات الثقافية الدولية، بقدر تَعَاظُم الصراع من حول الاتصالات الثقافية. ويذهب الكاتب الأمريكي هربرت شيلر (HERBERT I. Schiller) في كتابه «**الاتصال والهيمنة الثقافية**» إلى أن الامبريالية الثقافية تنمو في نظام عالمي ينطوي على سوق واحدة، ومن الضروري أن يتطوّر قطاعُ الاتصالات الثقافية في النظام العالمي بما يتسق مع أهداف النظام العام وغاياته، وبما ييسّر تحقيقها. ومن ثم فإن الناتج الإعلامي والثقافي تحدّده بقدر كبير، إن لم يكن كليةً، ضرورات السوق ذاتُها التي تحكم : ما ينتجه النظام الشامل من سلع وخدمات. ويخلص الكاتب إلى القول : «إن مفهوم الامبريالية الثقافية هي جماع العمليات التي تستخدم لإدخال مجتمع ما إلى النظام العالمي الحديث، ولاستماله الطبقة المهيمنة فيه والضغط عليها وإجبارها ورشوتها أحياناً كي تشكّل المؤسسات الاجتماعية في أنساق مع قيم المركز المهيمن في النظام وبُنَاه، أو حتى الترويج لها»[26].

وهذا الذي ذهب إليه الكاتب الأمريكي، يؤكد بصورة قاطعة أن اتجاهات النظام العالمي الجديد المفروض على المجتمع

---

(26) هربرت شيلر، **الاتصال والهيمنة الثقافية** : COMMUNICATION AND CULTURAL DOMINATION ترجمة د. وجيه سمعان عبد المسيح، ص: 21. سلسلة (**الألف الكتاب الثاني**) رقم : 135، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.

الدولي في مجال الثقافة، تسير نحو طمس الهويات الثقافية، ومحو السمات الحضارية للأمم والشعوب. وفي ذلك ـ وكما يظهر بداهةً ـ خرقٌ سافرٌ لمبادئ القانون الدولي، كما لا نحتاج أن نقول، لأن كلَّ المواثيق والأوفاق والإعلانات الدولية تؤكّد على احترام الهويات الثقافية للأمم والشعوب في جميع الأحوال.

وأمام هذا الوضع المتداخل والمعقد، يتعيّن على الثقافة العربية الإسلامية أن تحدَّد مواقعها، وأن توفّق أوضاعها. وهذا يتطلب الخروج على العالم بمواقفَ محدِّدة تعبّر عن حقائق الأمور في العالم العربي الإسلامي أصدق التعبير من جهة، وتترجم أشواق الأمة وأحلامها وآمالها بكل أمانة، من جهة ثانية. والمسألة هنا ذات بُعديْن؛ البُعد الثقافي، والبُعد المجتمعي (السياسي والاقتصادي والاجتماعي)، على النحو الذي تتداخل فيه المسؤوليات والمهامّ التي ينبغي القيام بها للتغيير وإعادة البناء.

إنَّ الثقافة هي مرآةُ المجتمع، تعكس صورة الحياة العامة في جميع مرافقها وأحوالها وأوضاعها. ومن الحقّ والصدق مع النفس أن نقول إن الثقافة العربية الإسلامية، في ظلّ الظروف الحالية التي يمرّ بها الوطنُ العربيُّ والعالم الإسلامي، تستمدُّ ضعفها من ضعف المجتمعات العربية الإسلامية، وتكتسب ملامحها الباهتة ــ وهذه حقيقةٌ لا مناص لنا من الاعتراف بها ــ من الحالة العامة التي تسود البلدان العربية الإسلامية. ولذلك فهذه الثقافة غير قادرة على المنافسة في سوق العرض والطلب الدولي، على مستوى الإبداع والابتكار، وعلى مستوى التجديد والاجتهاد. ومردُّ ذلك كلِّه إلى ما

يطبع الحياة العامة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وفي الغالب الأعم، من ضعفٍ، ومن تفريطٍ، ومن إهمالٍ شديدٍ للأخذ بأسباب التقدّم الحقيقي في المجالات كافة.

وما دامت جوانب كثيرة من الثقافة السائدة في المجتمعات العربية الإسلامية اليوم غيرَ منسجمةٍ مع مقوّمات الأمة وقيّمها الأساس، وما دامت لا تعبّر عن حقائق الرسالة الحضارية التي تحملها، فإن هذه الثقافة ستظل في وضع غير قابل للمنافسة التي تقتضي التكافؤ في عناصر القوة. وإن كان هذا الوضع لا يعني بحالٍ من الأحوال، بقاءها جامدةً لا تتحرك، وعاجزةً لا تشارك في ميدانٍ التنافس الثقافي العالمي.

إننا نعيش عصراً أرادت القوى العظمى أن يكون عصرَ الصراع في كل مجالات الحياة. ولكننا على الرّغم من ذلك لا نؤمن بالصراع، وإنما نؤمن بالتَدَافُع الحضاري. وإذا وُوجِهْنا بالصراع، تصدّينا له من منطلق قيمنا ومفاهيمنا، وبدافع الحرص على مصالحنا. ونحن موقنون تمام اليقين، أن الصراع الذي يُروَّجُ له اليومَ في بعض الدوائر الغربية، هو صراع بلا منطق، وأنه صراع القوة مع الضعف، والغنَى مع الفقر، تُستخدم فيه أدوات ووسائل وإمكانات لا يخضع اختيارُها إلى قيم أخلاقية، وإنما يخضع إلى قانون الغاب، إنْ جاز أن يكون للغاب قانون. وهو بذلك صراعٌ محمومٌ يكتسح أمامه كلَّ الحواجز.

ونحن نؤمن أيضاً، إيماناً عميقاً، بأن قوة الثقافة العربية الإسلامية هي في جذورها وأصولها وعناصرها الأساس المكوِّنة

لها. وفي الوقت نفسه، نعتقد أن هذه القوة المعنوية، هي جوهرُ الحضارة، إذ لا تقوم حضارة إلاَّ على أساس القوة المعنوية الكامنة في النَّفس الإنسانية، والتي يعبِّر عنها الفكر المبدعُ القادر على التغيير والبناء، وعلى التعمير والنماء. ولابد أن تقوم علاقة الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الأخرى على هذه القاعدة الصلبة.

إن من الحقائق التي علينا أن نبرزها دائماً، لأنها تتعرَّض لضروب من التغطية والتعمية والتزييف، أن ضعف الثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر، لم يصل إلى الجذور. ولذلك فإن هذه الثقافة قادرةٌ على العطاء، وتستطيع المواجهةَ مع الثقافات الأخرى، لا في ساحة النزال والعراك والصراع، وإنما في ساحة الحوار والتواصل والتدافع. فهي ثقافةٌ تملك مقوّمات البقاء والتأثير والنفاذ إلى كل المواقع، لأنها ثقافةٌ غنيّة، لا بالإرث الذي تملكه وتختزله، ولكن بالقيم التي تحملها، وبالمبادئ التي تقوم عليها، وبالرسالة التي تنهض بها. ومن ثم فإن الثقافة العربية الإسلامية لابد وأن تُقيم علاقتَها مع الثقافات الأخرى المعاصرة على أساس قدر معقول من الندّية والتكافؤ، إن لم يكن في الشكل والمظهر، ففي العمق والجوهر.

إن حوار الثقافات لا صراعها، هو الموقفُ الذي ينسجم مع روح هذا العصر الذي قطعت فيه البشرية شأواً بعيداً في تقنين الضوابط التي تحكم علاقات الأفراد والجماعات، وعلاقات الأمم والشعوب بعضها مع بعض. ففي ظل القانون الدوليّ لا يبقى للصراع بين الثقافات والحضارات مدلولٌ، إلاَّ أن يكون خروجاً على ما

اتفقت عليه الإرادةُ الإنسانيةُ في هذه المرحلة من التاريخ، وهو ما يتمثَّل في قواعد القانون الدولي وأحكامه التي من المفترض فيها أنها تنظم العلاقات الدولية على أساس من التعاون والتعايش والعمل المشترك من أجل إقرار الأمن والسلم في العالم.

معالم الخريطة الثقافية العالمية :

إن المتأمّل في تضاريس الخريطة الثقافية في عالم اليوم، يتبيَّن له أن معظم الثقافات المعاصرة، إما أنها نبعت من التراث اليوناني والروماني، أو امتزجت بتعاليم المسيحية واليهودية المحرّفة التي وصلتها، أو انبثقت عن تراث الشرق القديم القائم على تعاليم البوذية والزرادشتية. وتشترك الثقافةُ الغربية الليبرالية مع الثقافة الغربية والشرقية الماركسية (حتى بعد انهيار الماركسية) في الاستناد إلى التراث اليوناني والروماني. وفي الجملة فإن منظومة الأفكار الثقافية الكبرى التي تسود معظم العالم المعاصر، تعود في أعماقها وجذورها، إلى تراث أثينا وروما القديم. وهو كما نعلم تراثٌ وثنيٌّ لا يمتّ إلى تعاليم السماء بأدنى صلة.

إن معظم الثقافات السّائدة في هذا العصر تعبّر بصور متعدّدة عن روح الحضارة الغربية الحديثة التي تتسم بالتركيز الشديد على التكنولوجيا (باعتبارها أداةً للتحكّم)، بدلاً من التركيز على التفسير وتوسيع نطاق التفاهم والتواصل بين الناس. ولكل هذا تمَّ تهميش الاتجاهات التأملية والنقدية والجمالية في النفس البشرية. وهذا التركيز الأحادي (الذي هو في جوهره سيادةٌ للعقل الأداتي) يعني

أن الإنسان لا يستخدم كل إمكاناته الإنسانية (النقدية والجمالية ... الخ) في تنظيم المجتمع، ويركّز على الترشيد على هدى متطلبات النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية التي يُفترض أنها ستزيد من تحكّمه في الواقع. ويؤدّي كلُّ هذا بالطبع إلى ضمور حياة الإنسان، ويصبح الترشيد هو «استعمار عالم الحياة»[27].

وهكذا فإن معظم الثقافات المعاصرة تمتح جميعُها من نبع الحضارة الغربية الحديثة التي نَحَّت الدينَ من الحياة، وأبعدته عن الفكر والأدب والفن والعمل الثقافي الإبداعي على وجه الإجمال. فالحضارة الغربية حضارة تكنولوجية تُعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدّم مهما كان الثمن المادّي والمعنوي المدفوع فيها، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائماً، وتُهمل كثيراً من القيم التقليدية، مثل البر بالضعفاء، والشهامة، والتقوى، ومساعدة الآخرين[28]. أي أنها حضارة لا تعرف الرحمة تُنتج ثقافات لا ترحم.

وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة من الثقافات، تكتسب الثقافة العربية الإسلامية طابعاً بالغ التميّز، لأنها، ومهما يكن من أمرها، تستند إلى النبوّة ورسالة السماء ودعوة الخير ونداء الفطرة الإنسانية السويّة. ولكن الثقافة العربية الإسلامية مع ذلك كلّه، لم تبرأ من التأثّر بثقافات العصر، وقد يبلغ هذا التأثّر أحياناً، حدًّا يتفاوت بُعداً وقرباً من الجذور والأصول. ولكن في معظم الأحوال،

(27) د. عبد الوهاب المسيري، **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ : رؤية حضارية جديدة** ص: 251، دار الشروق، القاهرة، 1997م.

(28) المصدر نفسه، ص : 13.

يُفقد هذا التأثُّر في جانبه السلبي الثقافةَ العربية الإسلامية قدراً من خصائص هويّتها.

حوار الثقافة العربية مع الثقافات الأخرى :

في ظلّ غبار هذا المعترك الثقافي الذي يفرض الصراع فرضاً، والذي يقهر في أعماق الإنسان إرادةَ الخير والمحبّة والجمال، تتجلّى ضرورة تعزيز علاقات الحوار والتواصل بين الثقافات والحضارات وأتباع الأديان السماوية، حفاظاً على البقاء والتعايش بين شعوب العالم.

ففي الوقت الذي تهيمن فيه ثقافةُ السوق والسلع والاستهلاك المادّي، يتوجّب على المجتمع الدولي أن يتحرّر من قيود ما يعرف بالامبريالية الثقافية التي يفرضها النظام العالمي الجديد بقيادة محورِ قوةٍ واحدة. يقول أدوارد سعيد: «يتوجّب أن لا تغيب عن بصرنا الحقيقةُ الساطعةُ بأن الولايات المتحدة تُحكم رباطاً متيناً حول العالم، وأن المسألة لا تعود إلى ريغان (أو كلينتون اليوم) ونفر من شاكلة (كيركباترك) فقط، بل تعتمد كثيراً على الخطاب الثقافي وعلى صناعة المعرفة وإنتاج النصوص وتسويقها. إنها باختصارٍ لا تعتمد على «الثقافة» كميدان أنثروبولوجي عام يُنَاقَش ويُحلَّل روتينياً في دراسات ثقافية، بل على ثقافتنا نحن بوجه الحصر»[29].

(29) أدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، ص: 78، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1966م.

ولكننا على الرغم من ذلك كلّه يمكن أن نستخلص من التجارب المريرة التي عاشتها البشرية، أن العلاقة المتحضّرة التي ينبغي أن تسود بين الثقافات المعاصرة، هي علاقة الحوار بكل الدلالات التي ينطوي عليها. والحوار هو نقيضُ الصراع، لأن العلاقة الأولى تهدف إلى فهم الجانب الآخر، والتفاهم معه على أسس ثقافية أخلاقية منطقية، أما العلاقة الثانية فهي تتغيَّا الاقتحام والاكتساح والغزو وإلحاق الهزيمة بالجانب الآخر للهيمنة عليه.

إنّ الحوار بين الثقافات لا تكتمل عناصره إلاَّ إذا توفَّرت له شروط التكافؤ والندية والإرادة المشتركة والاحترام المتبادل، فالحوار على أي مستوى وحول أي موضوع كان، لا يكون من طرف واحد، وإنما الحوارُ يتمّ بين طرفين يملك كلاهما إرادة الحوار، وإلاَّ كان فرضاً للهيمنة وممارسة للسيطرة التي هي المدخل إلى الغزو الثقافي.

ولقد راج في الآونة الأخيرة القول بأن الغزو الثقافي وَهْمٌ من الأوهام. ونعتقد أن هذا الزعم جاء ردَّ فعل على الغلوِّ في افتراض الغزو الثقافي والمبالغة في الحديث عن محاذيره ومخاطره.

والحقيقة التي نستخلصها من تحليلنا لطبيعة العلاقات التي تسود الأمم والشعوب والثقافات والحضارات في هذا العصر، وفي العصور السابقة، تؤكّد لنا أن الغزو الثقافي، بشقّيْهِ الإيجابي والسلبي، هو مظهرٌ من مظاهر هذه العلاقات لا سبيل إلى إنكاره.

ولكن دعونا نُمعن النظر في دلالات هذا المصطلح (الغزو الثقافي والفكري). هل الغزو، من حيث هو غزو، فعلُ شرٍّ دائماً؟، أم

يكون فعلَ خير في بعض الأحايين ؟. هل الغزو الثقافي والفكري مطبوعٌ بالطابع السلبي على الدوام، أم يا تراه ينطبع أحياناً بالطابع الإيجابي ؟.

إنَّ القضية ـ في رأينا ـ نسبيةٌ، يمكن أن تُفهم من عدة وجوه، بحسب زاوية النظر إليها. ألم تمارس الثقافة العربية الإسلامية في أوج تألّقها وازدهارها، غزواً ثقافياً على العالم القديم ؟. ألم يكن هذا الغزوُ الثقافيُّ العربيُّ الإسلامي غزواً مشروعاً، وإيجابياً يخدم الأهداف الإنسانية النبيلة ؟.

لقد تراجع الغزوُ الثقافيُّ الإيجابيُّ الذي قام به العرب والمسلمون، بعدما ضعفوا وانعزلوا وانكفأوا على ذواتهم، ولم يعد لهم نفوذ من أي نوع كان في واقع الحال، فتعرضوا للغزو الثقافي الغربي الذي اختلف في منطلقاته وأدواته وأهدافه عمّا كان يتميّز به الغزو الثقافيُّ العربي الإسلامي من روح إنسانية وسماحة وسعة أفق.

إن الثقافة القوية هي التي تغزو الثقافات الضعيفة. والقوّة هنا ليست قوّة مادية فحسب تستمدّها الثقافة من القدرات والإمكانات المادية التي تتوفّر للمجتمع الذي تمثّله، وإنما هي، إلى ذلك، قوّة المصدر والدافع الرُّوحي للثقافة، وقوّة الأفكار التي تعبّر عنها، وقوّة الغايات التي تسعى إليها.

وهكذا تبدو لنا قضية الغزو الثقافي في نسبيتها. إن الغزو ليس دائماً شرًّا. إن من الغزو الثقافي ما فيه الخير، والثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر، تُوَاجَهُ بضروب من الغزو، وما ينبغي

أن يخيفنا هذا الوضع، أو يبثّ اليأس في نفوسنا. ولكن يتوجّب علينا أن نعي طبيعة العصر، وأن نعدّ العدّة للدفاع عن ثقافتنا بالعمل الجادّ المتحضّر الهادف، وبالقدوة والمثال والأسوة الحسنة من أعمالنا ومواقفنا، وبتغيير ما بأنفسنا، بالعلم والعمل والإيمان وبالوعي الحضاري الراقي، وبالانخراط في العصر فاعلين ومؤثّرين، متجاوبين ومتحاورين، فبذلك نبثّ الحياة في الثقافة العربية الإسلامية، ونجدّد شبابها، ونُوجد لها الوسائلَ للتنافس في المعترك الثقافي العالمي.

يقول المفكر المسلم رجاء جارودي : «في زماننا الذي يمكن فيه للبشر، من الناحية العملية، أن يقوموا بتدمير البشرية، لم يعد أمامنا من خيّار سوى بين (**التدمير المتبادل المحقق**) وبين (**الحوار**). ولا يمكن أن يقوم الحوار حقيقة إلاّ إذا اقتنع الجميعُ بأن هناك ما يمكن أن يتعلّموه من الآخرين»[30].

إن الثقافات المعاصرة محكومٌ عليها بالحوار، بل إن مستقبل البشرية مرهونٌ بإقامة حوارٍ متحضّر وعاقلٍ ورشيد بين الحضارات والأديان.

ولذلك فإن العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، لابدّ وأن تقوم على أساسٍ متينٍ من الحوار والتعايش الحضاري والثقافي، والإفادة من كلّ جديد نافع.

---

(30) رجاء جارودي، **أصول الأصوليات والتعصُّبات السلفية**، ص : 73، مكتبة الشروق، القاهرة، 1996م.

إن الحوار بين الثقافات إذا قام على هذه الأسس أدَّى إلى ما أصبح يعرف اليوم **بالتثاقف**، الذي هو في أدقّ تعريفاته، ضربٌ من التعايش الثقافي الراقي. وهو إحدى ثمار الحوار البنّاء بين البشر لتجنّب وقوع الكارثة.

والحوار مسؤولية كل مثقف عاقل في هذا العصر، وفي كل عصر. يقول الكاتب مايكل كاريذرس - (Michael Carrithers) : «إن الناس يعيشون بفضل العلاقات والثقافة القائمة بينهم حياةً وجدانيةً وفكرية، والثقافةُ التي تعني هنا تماماً العناصرَ الذهنيةَ في الأساس وأشكالَ المعارف والقيم التي نعيش بها وعليها أو التي تعلمناها أو ابتدعناها، لا نعقلها إلا حين يستخدمها الناس، وبالنسبة للآخرين، **فالثقافات، بعبارة أخرى، تفترض مسبقاً وجودَ العلاقات**»[31].

إن التنوّع الثقافيَّ في ظل الوحدة الإنسانية، يحكم على البشر بالتعايش الثقافي، ويعمّق مفهوم التثاقف لدرجة أصبح معها عنصراً رئيساً من عناصر المجتمع الدولي المتحضّر. وإن تنوّع الثقافات ضرورةٌ اجتماعية تاريخية، وضمانٌ للنهوض، وإن ارتقاء حياة الإنسانية في شتى المجتمعات، وعلى مدى التاريخ، رهنٌ بتنوّع الثقافات وتفاعلها، وبتباين الرؤى، وباختلاف الآراء، وبتوافر آليةٍ اجتماعية تكفل التفاعل الإيجابي الحر[32].

---

(31) مايكل كاريذرس، **لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية : نشأتها وتنوعها**، ص : 59، ترجمة د. شوقي جلال، سلسلة كتاب (**عالم المعرفة**)، يناير 1998م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(32) المصدر نفسه، من مقدمة المترجم بعنوان (**تنوّع ثقافي ووحدة إنسانية**)، ص : 7.

فالإقرار بالتنوّع الثقافي وكفالة حمايته صارا اليوم من مبادىء القانون الدولي، فقد جاء في المادة الأولى من (**إعلان مبادىء التعاون الثقافي الدولي**)، أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامُهما والمحافظةُ عليهما، وأن من حق كل شعب ومن واجبه أن ينمّي ثقافتَه، وأن جميع الثقافات تشكّل بما فيها من تنوّع خصب، وتأثير متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشرُ جميعاً[33].

فإذا أراد المجتمع الدوليُّ أن يحافظ على شرعية القانون الذي يحكم علاقات الأفراد والجماعات والحكومات، فإن ضرورة الحياة فوق هذه الأرض، وضرورةَ العيش في أمن وسلام، تفرضان تعايش الثقافات والحضارات والأديان، وإقامة حوار جدّي وهادف فيما بينها. ولا مستقبل للبشرية إذا سارت في اتجاه معاكس لذلك كلّه.

وفي هذا الإطار، ومن هذا المنظور، يتحتّم على الثقافة العربية اليوم أن تتجانس في مضامينها، وتتكامل في مواقفها ورؤاها، وتتحرك من منطلق هويتها المعبّرة عن حقيقة انتمائها ونبل مقاصدها، لتتمكّن من الصمود في ميدان التنافس الثقافي الدولي، وتتفاعل مع ثقافات العصر، من موقع النّدية والاقتدار، لا من موقع التبعية والانبهار.

---

(33) إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، المادة الأولى، أصدره المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، - يونسكو - في دورته الرابعة، يوم 4نوفمبر 1966م. وانظر (**الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي**) للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، نشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالرباط 1997م، الطبعة الثانية 2015م، و(**الهوية والعولمة**) نشر أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1997م.